من كنوز القرآن
١



الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق



الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

* قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

* وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

الإهـداء

إلى الأساتذة الأفاضل المدرسين في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية، الذين يقفون على ثغرة هامة من ثغور الإسلام.

إلى الطلبة الأعزاء: طلاب وطالبات كلية الشريعة في الجامعة الأردنية، الذين رضوا أن يكونوا جنوداً مخلصين لهذا الدين، فالتزموه في إيمان بصير، وعزيمة واثقة، وثبات راشد، وعمل هادٍ.

إلى دعاة الإسلام في كل مكان، واحات الإيمان في صحراء الجاهلية، ونجوم الهداية في ليلها البهيم.

إلى أهل القرآن هؤلاء أهدي هذه المفاتيح.

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَّانِيَة

قدَّر الله أن يكون هذا الكتاب، هو الحلقة الأولى من سلسلة «من كنوز القرآن». وقد صدرت طبعته الأولى هام ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٥م.

وقد وفق الله لإصدار حلقات أخرى من هذه السلسلة، وهي: في ظلال الإيمان، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، تصويبات في فهم بعض الآيات، مع قصص السابقين في القرآن: ١، ٢، ٣، ولطائف قرآنية.

وبعد أن نفدت نسخ الطبعة الأولى من هذا الكتاب، فإنني رأيت أن أعهد بنشره إلى الدار الناشرة لكتبي، دار القلم للطباعة والنشر، جزى الله صاحبها الكريم الأستاذ محمد علي دولة خير الجزاء، على اهتمامه بنشر العلم، وحرصه على إخراج الكتاب الإسلامي في أحسن صورة.

وقد فكرت في إجراء بعض التعديلات على هذا الكتاب ، والتوسع في الشرح والبيان ، لكنني عدلت عن ذلك، ورأيت أن أبقي الكتاب كما هو.

على أن أخصص كتاباً آخر في المستقبل، عن مفاتيح أخرى لفهم القرآن، تتضمن قواعد أساسية في أصول تأويل القرآن. والله المستعان.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي
صويلح. ص. ب: ٦٦٩

الاثنين ١٦ شعبان ١٤١٣هـ
٨ شباط ١٩٩٣م

هٰذه السِّلْسلة
«مِن كُنوز القرآن»

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

أما بعد:

فقد أوجب الله على المسلمين تدبر كتابه، وتكرار النظر فيه، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

وقد بيَّنت الآية الثانية السبب الذي يحول بين المسلم وبين تدبر القرآن، وهو الأقفال الكثيرة التي توضع على القلوب، فتدعها في غفلتها وظلامها وموتها، لا تحيا بالقرآن، ولا تصلها أنواره، ولا تتعامل معه، وهي تدعو أصحاب هذه القلوب إلى تكسير تلك الأقفال وإزالتها، وإلى فتح حنايا قلوبهم لهدى القرآن ونوره وضياءه، لتشرق بالنور وتدب فيها الحياة.

وهذا القرآن الحبيب العجيب المعجز، عجيب في صفاته وسماته، غني في معانيه ودلالاته، ثمين في كنوزه وحقائقه، حيٌّ في نصوصه وتوجيهاته، قوي في أهدافه وأغراضه، واقعي في مهمته ورسالته، فاعل في أثره ودوره.. معجز في أسلوبه وهديه.. مستمر في عطائه.. إنه ذو عطاء دائم متجدد، أقبل عليه المسلمون في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، فوجدوا عنده ما يريدون وزيادة، قرأوه وتدبروه، وعاشوا به ونظروا في نصوصه، وفسروا آياته، وبينوا شرائعه، وتحدثوا عن توجيهاته، واستخرجوا من كنوزه، وجنوا من ثماره.. والعلماء والمفسرون والمتدبرون أخذوا هذا في كل قرن، وسجلوه في كل عصر. وبقي القرآن قادراً بحول الله على العطاء، كنوزه ثمينة مذخورة لا تنفد، ولو كثر المغترفون، ومعينه ثَرّ كريم غزير لا ينضب، ولو كثر الشاربون، وظلاله ممتدة واسعة لا تزول، ولو توافد عليها المتفيئون.. وأنواره مشعة لا تخبو، ولو طال عليها الزمان وامتدت بها السنون.. ورسالته ومهمته متجددة حتى يدركها القرن العشرون، وما بعده إلى أن يهلك العالمون أجمعون!!.

وقد صدق في وصفه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، عندما قال عنه: «هو كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخير ما بعدكم، وحكم مابينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.. وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا

أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن: ١، ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم..».

وهو فعلاً لا تشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه.. فالعلماء على كثرتهم وتعدد ثقافاتهم ومدارسهم، أقبلوا عليه وأخذوا منه الكثير، ولم يشبعوا ولم يستقصوا. فكم سجلوا من معانيه، واستخرجوا من كنوزه، ومع ذلك بقي يعطي ويعطي، ويدعو الراغبين إليه، ليقفوا على ما لم يقف عليه السابقون، ويضيفوا إلى ما لاحظه أولئك وسجلوه.

وإن المؤمن عندما يحسن تدبر القرآن والتعامل معه، يقف على زاد عظيم من معانيه ودلالاته وإيحاءاته. فإذا قارن هذا بما سجله السابقون، سيجد فيه إضافات وإضافات، وعندها سيصحح مثلاً خاطئاً، أطلقه بعض الذين أرادوا إغلاق باب تدبر القرآن والحياة معه، فقالوا: «ما ترك الأول للآخر!!» سيصححه ـ بتحوير يسير فيه وتبديل كلمة بكلمة ـ فيقول: «كم ترك الأول للآخر» وكم هنا هي التكثيرية لا الاستفهامية!

إن باب التفسير لا يمكن أن يغلق، وإن مدد التفسير لا ينفد، وإن أهل كل عصر سيحتاجون إلى تفاسير جديدة للقرآن، تعالج مشكلات عصرهم، وتحل قضايا مجتمعاتهم، وترد على الشبهات الجديدة التي أثارها أعداؤهم، وتوثق صلة المسلمين بقرآنهم، وتحسِّن تعاملهم معه وحياتهم به..

ونحن في عصرنا الحاضر أحوج ما نكون إلى القرآن، نتلوه ونتدبره، ونفهمه ونفسره، ونحيا به ونتعامل معه، ونستخرج المزيد من كنوزه المذخورة، ونتحرك به، ونجاهد الأعداء به، ونصلح أنفسنا ومجتمعاتنا على هديه، ونقيم مناهج حياتنا على أسسه ومبادئه وتوجيهاته.. لأن هذا

العصر هو عصر الهجمة الشرسة، التي شنها الثالوث النجس ــ اليهودية والصليبية والإلحاد ــ على الأمة، واخترق خطوط دفاعها الأولى، واحتل مواقع هامة في عقول وقلوب ومجتمعات وحياة هذه الأمة.. فلا بدَّ من اللجوء إلى القرآن، والإقبال عليه، ومواجهة الأعداء به، وجهادهم على هديه..

ونحن الذين نعيش هذا العصر بمآسيه وآلامه، ونصطلي بوهجه وناره، قد ابتلانا الله بأن جعلنا في مواجهة أعدائه، وامتحننا بأن أوقفنا في ميدان المعركة معهم، ووضعنا على ثغرة هامة من الثغور أمامهم، ومنَّ علينا بأن جعلنا من رجاله وجنوده، ومن أهل القرآن وحملته والناظرين فيه.. نرجو الله أن يعيننا في هذا الابتلاء، وأن يكتب لنا النجاح في هذا الامتحان، والتوفيق في العمل في الميدان، والثبات في الثغرة، والانتصار في المواقع، والأجر والثواب في الحياة الدنيا، والجنة الغالية يوم القيامة..

منَّ الله علينا بفضله بالنظر في القرآن ــ وهو نظر عاجز كليل ــ وبتدبره وفهمه وتفسيره ــ وهو جهد ناقص قليل ــ فاستعنابالله وحده، في أن نعيش في ظلال القرآن، وأن نصحبه في رحلة شيقة ممتعة، نحاول أن نغترف من كنوزه المذخورة، وأن نرتوي من معينه العذب، وأن نستخدم مفاتيح نافعة صالحة إن شاء الله، لحسن التعامل معه، والتلقي عنه، والحياة به..

وأحببنا أن نقدم ما يفتح الله به علينا من ذلك لقراء القرآن، وأن نضع بين يدي جنوده وَحَمَلته وأهله ما نستخرجه من كنوزه، وما نجنيه من ثماره، وما نقف عليه من حقائقه ومعانيه وتقريراته..

فكانت هذه السلسلة «من كنوز القرآن المذخورة» وسنحرص بإذن الله

أن نأتي بالجديد المفيد، وإن لا نكرر ما قاله السابقون ـ ما أمكن ـ ونحاول أن يكون ما نقدمه في هذه السلسلة، له ارتباط مباشر بالإيمان والعمل، والتربية والتوجيه، والواقع والحركة، والجهاد والدعوة، والمنهجية والعلمية والموضوعية، ولن نلتفت كثيراً إلى كنوز القرآن في اللغة والبلاغة، والبيان والنحو، والفقه والأحكام، والجدل والخلاف، وغير ذلك لأن هذه الموضوعات تزخر بها الكتب السابقة!..

وقد بدأنا هذه السلسلة بهذا الكتاب «مفاتيح للتعامل مع القرآن» أساساً لما يليه من كتب قادمة، بعون الله.

ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل..

• • •

هـذا الكتـاب
«مفاتيح للتعامُل مع القرآن»

مفـاتيـح التعـامـل مـع القـرآن، لا بـدَّ مـن الـوقـوف عليهـا ومعـرفتهـا، واستخدامها في استخراج كنوز القرآن المذخورة فيه. . ولهذا بدأنا سلسلتنا بهذا الكتاب، باعتباره أساساً لها، وتمهيداً لما سيليه من حلقاتها، وباعتباره يسجل نظرتنا إلى القرآن، ويبين منهجنا في التعامل معه، وخطتنا في استخراج كنوزه، ويدل القارىء الكريم على الوسيلة التي استخدمناها، ليحاول هو استخدامها. . لقد حرصنا أن نضع هذه المفاتيح بين يدي أهل القرآن وجنوده وحملته، ليتعرفوا عليها، ويقفوا عليها، ويستخدموها في صلتهم بالقرآن، وتعاملهم معه، وأخذهم عنه، واستخراجهم لكنوزه. . وعندها سيقفون على ما لم نقف عليه، ويلاحظون ما فاتتنا ملاحظته، ويستخرجون منه المزيد من الكنوز واللطائف والمعارف، والدروس والعبر والعظات، والمعاني والحقائق والتقريرات.

وهـذه المفـاتيـح حصَّلنـاهـا بفضـل الله وتـوفيقـه، مـن نظـراتنـا الكليلـة القاصرة في القرآن، ومن اطلاعنا القاصر على التفاسير ــ وفي طليعتها «في ظلال القرآن» ــ ومن قراءتنا الناقصة في كتب تحدثت عن القرآن، وأشارت إلى مبادىء أساسية لفهمه وكيفية تدبره والحياة به.

لقد كنت حريصاً على الحديث عن هذه المفاتيح والإشارة إليها،

أثناء تدريسي لمواد التفسير وعلوم القرآن لطلبة كلية العلوم الإسلامية ــ التابعة لوزارة الأوقاف ــ ولطلاب وطالبات كلية الشريعة في الجامعة الأردنية.

كنت أبدأُ محاضرات الفصل الدراسي بالحديث عن هذه المفاتيح، وأشير إلى أهمية وضرورة إدراكهم لها واستخدامهم لها.. وأورد بعض هذه المفاتيح أثناء تفسير آيات سورة الأنعام ــ في مادة تفسير «٢» ــ وتفسير آيات جزء «قد سمع» ــ في مادة تفسير «٣» ــ وكنت ألاحظ الاهتمام والتفاعل عند الطلاب والطالبات، والفرح والسرور بالوقوف على هذه المفاتيح.. وكنت أحرص على أن أضيف إليها ما يهديني الله إليه، وأن أقدمه لهم في قاعات التدريس.

ولم أفكر في أن أكتب كتاباً يعرض هذه المفاتيح والقواعد والأسس، بل كنت أكتفي بأن أعيشها، وأحاول استخدامها وإرشاد الآخرين إليها..

حتى كان الفصل الدراسي الثاني للعام الجامعي ٨٤ ــ ١٩٨٥، حيث درَّسْتُ طلاب وطالبات كلية الشريعة في الجامعة الأردنية مادة تفسير «٣» ومادة «دراسات قرآنية».. وأعدتْ طالبات الجمعيات العلمية في الكلية موسماً ثقافياً لهذا العام، ورغبن إليّ أن أبدأ هذا الموسم بمحاضرة جعلن عنوانها «كيف نحيا بالقرآن».. وأخذت أبحث في المراجع، واستغرق هذا مني أياماً اطلعت فيها على طائفة من كتب التفسير وعلوم القرآن والحديث والفضائل والتزكية.. وألقيت المحاضرة في مدرج كلية الشريعة يوم السبت ٨ رجب ١٤٠٥هـ (٣٠/ ٣/ ١٩٨٥). كما دعيتُ إلى إلقائها في مدارس ومساجد أخرى، والحمد لله على توفيقه وفضله وإنعامه..

ثم وجدت لديّ الرغبة في أن أجمع هذه المفاتيح وأتحدث عنها، وأخرجها في رسالة للناس.. لعلهم يجدون فيها نفعاً، ولعلها تقودهم إلى حسن التعامل مع القرآن، واستخراج كنوزه وذخائره ومعانيه..

وها هي ذي أقدمها لأهل القرآن وجنوده، راجياً أن يجدوا فيها بعض ما يعينهم على تحقيق هذه الغاية..

هذا وأحب أن أشير هنا إلى أنني لم أبدأ البحث من فراغ، وإنما استعنت بالله أولاً، ثم أقبلت على القرآن، واستخلصت ما يمكن استخلاصه منه، وكنت أقرأ في كتب عرض أصحابها للقرآن وتفسيره وفضائله ومزاياه، وأشاروا إلى قواعد تدبره وكيفية الحياة به وآداب تلاوته.. وغير ذلك.. قرأت في هذه الكتب، وكوَّنت منها خلفية علمية وحصيلة ثقافية، كانت ترتدُّ إلى ذاكرتي بعض أفكارها وآراء أصحابها والقواعد والأسس التي عرضوا لها فيها..

فعلى الرغم من أنني لم آخذ من هذه الكتب بالنص ــ إلَّا نادراً وكنت أشير إليه ــ فإنني أعتقد أن ما قدمته في هذا الكتاب يتصل بتلك الأفكار والآراء والقواعد بصلة نسب، ويأخذ منها عندما ارتدت إلى العقل والباطن ومخزن المعلومات في الذاكرة.. وإن لم تبرز هذه الصلة في الجمل والعبارات، فقد تبدو في المعاني والأفكار العامة..

وأضع بين يديْ القراء أهم الكتب التي تحدثت عن القرآن وبينت فضائله وآداب تلاوته وقواعد تدبره وأسس فهمه: فصول في آداب تلاوة القرآن من كتب: «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي وغير ذلك. وحديث عن فضائل القرآن في مقدمات تفسير القرطبي والقاسمي ــ على سبيل المثال ــ وكتاب «فضائل القرآن» للامام ابن كثير، ملحق في الجزء الرابع من تفسيره، وقد طبع مستقلاً. و «التبيان في آداب حملة القرآن» للإمام النووي. ومقدمات تفسير القرآن «للإمام الشهيد حسن البنا»، و «مبادىء أساسية لفهم القرآن» لأبي الأعلى المودودي. و «كيف نتأدب مع المصحف» للفرجاني، و «التكميل في

أصول التأويل» و «دلائل النظام» كلاهما لعالم القرآن العظيم ومفسره صاحب النظرات الفريدة فيه التي لم يقلها أحد قبله ولا بعده «المعلم» عبد الحميد الفراهي الهندي. و «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل» لعبدالرحمن حبنكة الميداني. و «كيف نحيا بالقرآن»؟ لنبيه عبد ربه.. وأقرر هنا أن أغلب ما أخذته وما وقفت عليه من هذه المفاتيح إنما كان من التفسير الرائد «في ظلال القرآن» للإمام الشهيد سيد قطب.

إنني أدعوا القراء الكرام إلى أن يقبلوا على هذه المفاتيح بنظرات فاحصة، وملكة نقدية، وأرجو أن يصححوا لي فهمي، ويصوبوا لي استنتاجي، ويستدركوا على كلامي.. فنحن ما زلنا نحبو في ظلال القرآن، ونتطفل على مائدة القرآن، ونتعلم الأساسيات من علوم القرآن، وإن النقص من سمات البشر. ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

الخميس في ١٧ شوَّال ١٤٠٥هـ
٤ / تموز/ ١٩٨٥م

حديث القرآن عن القرآن:
أسماؤه وسماته

وردت في القرآن الكريم صفات وسمات لكتاب الله، وسجلت آياته أوصافاً وخصائص واضحة لهذا الكتاب المعجز، ولاحظت آثاره المباركة الخيرة على الأفراد والجماعات، وأبرزت مظاهر النقلة البعيدة التي ينتقل إليها المؤمنون الأحياء المبصرون، من خلال تفاعلهم الحي مع القرآن، وحياتهم الطاهرة في ظلاله..

ويجب علينا ـ ونحن نتلو القرآن ونتدبره ـ أن نلاحظ هذه الصفات والسمات، وأن نقف طويلاً أمام الآيات التي تعرضها، وأن نعيشها بكامل كياننا وكافة مشاعرنا ودقائق حياتنا..

إن الله سبحانه يريد أن يعرِّفنا بكلامه العظيم في كتابه الكريم، وأن نلاحظ الحياة المباركة فيه، وأن نعيش هذه الحياة في ظلاله.. ولذلك عرض لنا طائفة من أسماء القرآن وصفاته وخصائصه وسماته.. فلنقبل عليها بوعي وتدبر وتفاعل، لنعرف طبيعة هذا القرآن ومهمته ودوره ورسالته.. لأنه لا أحد أعلم بكلام الله من الله سبحانه.. وإنَّ تفضُّل الله علينا بتعريفنا على كتابه لهو نعمة سابغة، ورحمة باهرة، علينا أن نقابلها بالتوجه إلى الله سبحانه بالحمد والشكر، والإخلاص، والحب، والإقبال على كتابه الكريم بالتدبر والتذوق والالتزام والتطبيق، لنعرف طعم الحياة، ونتذوق ألوانها ومظاهرها.

ونقدم فيما يلي طائفة من أسماء القرآن وخصائصه، وسماته وصفاته، وفضائله وآثاره، كما وردت في نصوصه وآياته..

القــرآن:

هو أشهر هذه الأسماء وأبرزها وأظهرها، وقد خص الله كتابه المنزل على رسول الله ﷺ بهذا الاسم، حيث لم يطلق على كتب الله السماوية السابقة. والقرآن مشتق من القراءة (كما هو الراجح عند علماء القرآن). وقد خُص بالكتاب المنزل على محمد ﷺ، فصار علماً عليه..

وأورد الراغب في مفرداته قول أحد العلماء: «تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم» كما أشار إليه بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١] [المفردات: ٤٠٢].

ولعل في اختيار هذا الاسم الكريم ـ المتميز المتفرد ـ إشارة بارزة إلى وجوب تميز وتفرد الأمة الإسلامية ـ الأمينة على قرآنها وعلى وجودها وعلى البشرية من حولها ـ بحيث لا تأخذ في مناهج حياتها من غير هذا القرآن الكريم.

أخبر الله عن بدء نزول القرآن في شهر رمضان المبارك بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى في وصف هذا القرآن ﴿قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [قٓ: ١] وقال: ﴿صٓ ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾ [صٓ: ١] ووصف القرآن بأنه عربي مبين في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③﴾ [فصلت: ٣].

وقرر الله أن هذا القرآن ميسر للذكر ـ لمن أراد أن يذكر ويتذكر، ولمن تعامل معه بقلب حي وتأثر بالغ ـ فقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾؟ [القمر: ١٧].

وبيّن أنه ضرب في هذا القرآن للناس من كل مثل لعلهم يتفكرون أو يتذكرون، ولكنهم غفلوا عن هذه الأمثال وأعرضوا عنها، واختاروا أن يعيشوا في ريبهم وكفرهم يترددون. فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٩].

وأعلمنا الله أن الكفار لا يحبون سماع هذا القرآن، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن فإن الحاجز السميك، والحجاب الساتر، يرتفع بينه وبين أولئك الكفار، وأن هذا الحجاب الحاجز يتمثل في الأغطية على القلوب، وفي الصمم في الآذان، فلا تعي ولا تتدبر كلام الله، ولذلك يعرضون عن القارىء لكلام الله، ويولون مدبرين نافرين، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

ودعانا الله إلى أن نتهيأ لتلاوة القرآن، وأن نستعد لها استعداداً خاصاً، بأن نتوجه إلى الله قبلها، نستعيذ به من الشيطان، لتكون هذه الاستعاذة وسيلة لتدبر كلام الله، فقال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨].

وطالبنا الله بالأدب الجم مع القرآن، عندما نسمع آياته تتلى علينا، فلا بد من الاستماع لها بكامل كياننا الإنساني، وفتْح كل منافذ القلب لتصل إليه وتتفاعل معه. وفرق بين السماع والاستماع، إذ أن السماع هو وصول

الأصوات إلى الأذن، ولكنه قد يكون سماعاً عرضياً غير مقصود. . أما الاستماع فهو مشاركة الحواس والأجهزة المختلفة في المسلم للأذن، في التفاعل والتدبر والتلقي والانفعال. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وبيَّن أثر القرآن على الجبال الجوامد ــ لو خاطبها به ــ وتفاعلها معه، وأبرز مظاهر التأثير والانفعال عليها فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد: ٣١].

ولقد أمرنا الله بتدبر القرآن، والوقوف طويلاً أمام آياته، وملاحظة إيحاءاتها وتوجيهاتها ومعانيها وحقائقها، ووضع أيدينا على العلة التي تحول بيننا وبين هذا التدبر، والداء الذي يعوقنا عن القيام به، وذلك حتى نقضي على تلك العلة، ونزيل ذلك الداء، وهو الأقفال على القلوب، التي توصدها أمام النور والهدى والخير والحياة، وهذه الأقفال هي الشهوات والمعاصي والإقبال على الدنيا، وملء القلب من كل ذلك، بحيث لا يبقى فيه متسعاً لتدبر أو هدى أو إيمان. . فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

وأرشد الله إلى أن نجعل التدبر وسيلة لا غاية، ولا نقعد عنده ونتشاغل به عن الهدف المنشود، وهو زيادة الإيمان والثقة واليقين بكلام الله، وملاحظة تناسقه وتناسبه وإدراك مهمته وأغراضه، وتَلَقِّي حقائقه ومقرراته. . فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ومنّ الله علينا بأن أخبرنا أننا إن راعينا ما سبق في التعامل مع القرآن وتلاوته وتدبره، فإننا سنحصل على الهدى الراشد، والنور الهادي، والشفاء الناجع، فالقرآن هدى للأفراد والمجتمعات، ونور لكل مرافق الحياة الفردية والجماعية، وشفاء لكافة أمراض وعلل الأمة فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩] وقال أيضاً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢].

وصدق الله إذ وصف كتابه بصفة الحكمة، وهي صفة عجيبة لا يوصف بها إلاَّ العقلاء!! ولعلنا عندما نعيش مع القرآن كما يريد الله، ونحيا به على منهج الله، نلاحظ بعض جوانب الحكمة في قرآننا العجيب الحكيم! قال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١ ــ ٢].

وقد ذم الله الكفار الذين قسموا القرآن، وأطلقوا عليه صفات باطلة ــ ليصدوا الناس عن الإيمان به ــ فقالوا عنه: سحر وشعر وكهانة، وهذا الذم ينصرف على اليهود والنصارى الذين قسموا كتبهم السماوية أقساماً، وجزَّؤوها أجزاءً، فآمنوا ببعض منها وكفروا ببعض، اتباعاً لشهواتهم وأهوائهم، وأرى أن هذا ينصرف إلى المسلمين الذين يجزأون القرآن ويقسمونه، ويأخذون منه جزءاً ويتركون أجزاءً، ويظهرون منه قسماً ويخفون أقساماً، ويؤمنون بموضوع منه ويكفرون بموضوعات!!. وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: ٩٠ ــ ٩١] وعضين أي مفرقاً، حيث قالوا كهانة وقالوا أساطير الأولين إلى غير ذلك مما وصفوه به (المفردات: ٢٣٨).

وسجل القرآن الكريم شكوى رسول الله ﷺ إلى ربه، من الكفار

وإعراضهم عن القرآن وهجرهم له. فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠].

بل سجل القرآن أسلوباً من أساليب الكفار في مواجهتهم لهذا القرآن، ومحاربتهم له، وبذلهم كل ما في وسعهم من طاقة لطمس نوره والقضاء عليه.. وهيهات هيهات!! إنهم يلجأون إلى وسيلة خسيسة تنبىء عن هزيمتهم الداخلية أمام القرآن، واضطرابهم النفسي أمام حقائقه، واعترافهم ـ الضمني الملحوظ ـ بعجزهم عن مواجهته، وفشلهم في محاربته.. إنهم يطلبون من الجماهير المخدوعة المستغْفَلَة أن لا تسمع لهذا القرآن ـ لأنها إن استمعت بكيانها كله آمنت به ـ وأن تستعيض عن ذلك باللغووالصياح والضجيج، والتظاهرة الإعلامية ورفع الأصوات اللاغية، والمكاء والصفير، والتصدية والتصفيق.. لعلهم يغلبون هذا الحق ويطمسون هذا النور، ويغطون نور الشمس برقعة منديل!.. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصّلت: ٢٦].

٢ ــ الكتاب:

وهو الاسم الثاني للقرآن الكريم، وقد ذكر كثيراً في آياته، وتردد كثيراً في سوره، وهو يلي القرآن في الشهرة وكثرة الذكر، والقرآن كتاب باعتباره مكتوباً، مضمومة حروفه وكلماته وآياته عن طريق الخط والكتابة..

ومن تسمية كلام الله بهذين الاسمين القرآن والكتاب. يلاحظ معنى الضم والجمع، فإن القرآن مشتق من القراءة والقراءة ــ كما يقول الإمام الراغب في مفرداته ــ «هي ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل» (المفردات: ٤٠٢) والكتاب مشتق من الكتابة، وهي ــ كما يقول الراغب أيضاً ــ «ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وقد يقال ذلك

للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يستعار كل واحد للآخر، ولهذا سمي كلام الله ـ وإن لم يكتب ـ كتاباً (المفردات: ٤٢٣).

ونحن نرى كلمات وآيات القرآن مضمومة إلى بعضها ضماً متناسقاً متماسكاً معجزاً، وكل من قرأ في القرآن وسمع آيات منه، أو كتب ألفاظاً وكلمات منه يلحظ معنى الضم في كل ذلك..

وتبدو هناك حكمة أخرى من تسمية كلام الله بهذين الاسمين: القرآن والكتاب، وقد أورد هذه الحكمة العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم «النبأ العظيم»، وخلاصتها: أن الله أراد من هذين الاسمين أن يتحقق الجمع الوثيق لكلامه، وأن يوجد الحفظ التام المطلق لكل سوره وآياته وكلماته وحروفه، وأن لا يردَ على النفس المسلمة احتمال ولو يسيراً عن تعرض شيء منها للتحريف أو الضياع أو النقصان.. ولذلك تم حفظ القرآن بوسيلتين عمليتين، هما القمة في وسائل الحفظ والتوثيق: وسيلة القراءة، ووسيلة الكتابة: «فلا يقبل القرآن المقروء ما لم يعرض على المصحف العثماني المكتوب ويتفق معه، ولا يقبل المكتوب ما لم يتفق مع تعليم الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه للقرآن، وإقرائهم له وقراءته له أمامهم».. [انظر النبأ العظيم: ٧ ـ ٩].

هذا الكتاب الذي أنزله الله هو حق لا ريب فيه، وهو هدى للمتقين. قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

وهو كتاب حكيم كما أنه قرآن حكيم.. ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١٠]، وقد أُحكمت آياته ثم فُصلت ووُضحت

وبُينت، وقُدمت للناس ليؤمنوا بها ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١].

وخاطب الله رسوله ﷺ بأنه أنزل عليه القرآن، وذلك ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكتاب الله هو الوسيلة الوحيدة لهذا الإخراج، وأية وسيلة أخرى غيره إنما هي أوهام وظنون وتخرصات، ولا تنتج إلاَّ مزيداً من الظلمات. قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

وأعلمه أنه أنزل إليه الذكر والكتاب تبياناً لكل شيء وتفصيلاً له، وهو بهذا التبيان هدى ورحمة وبشرى للمسلمين، فقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

بل قصر الله مهمة الكتاب الكريم على هذا البيان، وحصرها به، وطالب رسوله عليه الصلاة والسلام بالقيام بذلك وتبليغه وأدائه.. ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٦٤﴾ [النحل: ٦٤].

وورود ثلاث آيات كريمة في سورة واحدة ــ هي سورة النحل ــ تحدد مهمة هذا الكتاب وتقصرها على البيان والتبيان، وتطالب الرسول عليه السَّلام بذلك، ذو دلالة خاصة على هذا، ويشير إلى تفرد سورة النحل بذلك ــ وهي سورة النعم، وأية نعمة أعظم من نعمة التبيان والبيان من خلال القرآن ــ.. كما نشير إلى صياغة الآيات الكريمة، حيث جعلت

التبيان القرآني عاماً للناس جميعاً، وخصصت ما فيه من رحمة وهدى وبشرى للمسلمين فقط، لأن هذه الثلاثة مرتبطة بالإيمان الإسلامي ومبنية عليه، ولا توجد عند فقده.

ويطالب الله رسوله ﷺ بأن يقوم بهذا التبيان والبلاغ والإنذار للناس، وأن لا يدع للحرج أو الضيق مجالاً ينفذ منه إلى صدره، لأنه يعوقه عن أداء هذا الواجب، فلا حرج فيه وإن خالف ما عليه الناس، وإن فاجأهم بما لا يتوقعونه!! ولماذا يتحرج الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو لا يتلقى الحقائق والقيم والأعراف والموازين والمبادىء والتوجيهات من الناس، إنما يتلقى كل ذلك من رب الناس، ويكفيه أن الله يشهد له، ويكون معه، وينصره ويثبته، ويأجره على فعله.. قال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: ١ ــ ٢].

ويخبر الله سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام، بوظيفة هذا الكتاب المنزل عليه، الوظيفة التي تجعل له وجوداً ومهمة، والتي تبرز من خلالها الحياة فيه، وتظهر آثاره، وتجني ثماره، تلك هي الحكم بين الناس بالحق.. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥].

هذا وبيَّن لنا الله الوسيلة التي تضمن لهذا الكتاب الحق أن يحقق وجوده عملياً، وأن يحق الحق ويبطل الباطل، وأن يقود الناس إلى الحق، تلك الوسيلة هي القوة المادية التي تحرسه وتحميه، والتي تهيِّىء له الناصر البشري الذي يطبقه وينفذ أحكامه، وبدون هذه القوة يبقى حقاً نظرياً مقيداً عن العمل في الواقع، ويتحول إلى حق مضيع، يعدو عليه كل جبان، وينتقصه كل ضعيف، ويعوي عليه كل نابح!!. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ

فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقد أشار القرآن إلى وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام في تعليم الأمة كتاب الله، فسجل دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بذلك منذ زمن بعيد، حيث دعَوَا الله أن يبعث للبشرية خيراً وطهراً ونوراً وهداية.. ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وأخبرنا الله أنه استجاب دعوة النبييْن الصالحيْن عليهما الصلاة والسلام فقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال تعالى مظهراً المنة الربانية العظمى علينا ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام، وإخراجه هذه الأمة بإذن ربها من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الموت إلى الحياة ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وتتحدث آية من سورة الجمعة عن نفس الموضوع، حديثاً يتناسق مع موضوع السورة وشخصيتها المستقلة، فتقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢].

ونلاحظ في صياغة الآيات الثلاث أمراً لافتاً للنظر، وذا دلالة تربوية عميقة، وكأني بهذه الآيات الثلاث تشير إلى منهج تربوي راشد ناجح،

وتدعو المخططين والموجهين والمربين في عالمنا اليوم، وواضعي الخطط والمناهج التربوية والكتب التعليمية إلى ملاحظة هذه الإشارة القرآنية واللفتة التعليمية فيها.. تلك هي ترتيب المهمة التربوية التعليمية لرسول الله عليه الصلاة والسلام، والعطف على وسائلها بالواو، وتقديم الأساس على البناء، والتمهيد على الموضوع، والبذرة والشجرة على الثمرة والجني، والمقدمة على النتيجة، نأخذ كل هذا من عطف الأفعال المضارعة في قوله: «يتلو عليهم آياته.. ويزكيهم.. ويعلمهم الكتاب والحكمة» إنها مراحل ثلاث متدرجة متتابعة مرتبة: تلاوة القرآن كتمهيد وتخلية واستعداد وتهيئة، ثم تزكية النفوس وتطهيرها من أمراضها وأدرانها ونقائصها ورذائلها.. وأخيراً تأتي عملية التعليم لهذه النفوس بعدما استعدت وتهيأت، وبعد ما تطهرت وزكت.. وبعدما أشرقت واستنارت، تأتي عملية التعليم ثمرة مباركة لشجرة الإيمان والتزكية، ونتيجة معطاءة لمقدمات مدروسة صحيحة، وهدى ورحمة وخيراً وسعادة للمتعلمين، ولأمتهم وللإنسانية من حولهم..

وقد وصف الله كتابه بصفة البركة، ووسمه بهذه السمة، ودعانا إلى تلمس مظاهر هذه الصفة، والوقوف على ألوان البركة القرآنية الشاملة العامة، ولا أعني بها البركة بمفهومها المنتشر عند المسلمين اليوم من الخير والعطاء والزيادة في الأجر والثواب، لا أعني هذا فقط ـ كما أنني لا أنفيه من القرآن، فهو مبارك بهذا المفهوم ـ وإنما أعني بها البركة في المفهوم القرآني، وهي ـ كما قال العلامة الراغب الأصفهاني في كتابه الفريد المفردات ـ «والبركة ثبوت الخير الإلّهي في الشيء»، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، والمبارك ما فيه ذلك الخير، ومن ذلك ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء: ٥٠].

تنبيهاً على ما يفيض عليه من الخيرات الإلٓهية. . » إلى أن يقول: «ولما كان الخير الإلٓهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة. . » (المفردات: ٤٤).

فكتاب الله الكريم مبارك بكل صور البركة وألوانها، وتتجلى فيه كل مظاهر البركة وآفاقها، وأصولها وفروعها. . قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [صٓ: ٢٩].

ونلاحظ في القرآن آية كريمة قسمت المسلمين في تعاملهم مع كتاب الله أقساماً ثلاثة، فهم قد ورثوا كتاب الله، ولكنهم ليسوا على مستوى واحد في هذه الوراثة، ولا على درجة واحدة في الاعتناء بهذا الموروث الكريم، والكنز العتيق، والبركة الغامرة، فمنهم من ظلم نفسه في التعامل مع كتاب الله وتطبيقه، فقصر في الواجبات وارتكب المحرمات، ومنهم من هو مقتصد لا يريد أن تزيد طاعاته على معاصيه ولا العكس، والصنف الثالث هو الفائز الناجح، وهو السابق بالخيرات، والمستزيد من الطاعات، والمكثر من الحسنات ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

٣ ــ الذكر:

قال تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [صٓ: ١]، وقال تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: ٤٤].

وفي القرآن الذكر المجيد لهذه الأمة، فقد كانت قبل هذا القرآن نكرة من النكرات، تعيش وتموت ولا يحس بها أحد إن عاشت أو ماتت.. ثم أعلى القرآن ذكرها، وبوأها مكانتها، وأسلمها قيادة البشرية، وجعلها قائدة ورائدة، وفي مركز الأستاذية والوصاية والرعاية.. ولا ذكر لهذه الأمة إلاَّ بالتزام الذكر الرباني، والانطلاق به والظهور من خلاله. هذا أو العودة إلى زوايا النسيان وعالم النكرات، وذيل القافلة وسقط المتاع.. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وهذا الذكر المبارك لا يستفيد منه إلاَّ من كان صاحب قلب حي متفاعل، فيمتزج الذكر الرباني مع القلب الإيماني، وتسري الحياة مع القرآن إلى القلب فتحييه.. وتظهر سمات الحياة القرآنية على الجوارح، وتُلحظ على السلوك، وتكون ثماراً يانعة خيرة في الواقع المعاش.. قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠].

٤ ـ الـروح:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]. ونأخذ هذه الآية على حقيقتها، ونأخذ هذه السمة القرآنية على ظاهرها، فإنه روح وإنه حي وإنه حياة، والإنسان يكون ميتاً بين الأموات، يكون ميت القلب والإحساس والشعور، ثم يتفاعل مع الروح

القرآني المحيي، ويفتح لهذه الروح قلبه وأحاسيسه وكيانه فتدب في هذا القلب الحياة، وتنعكس على الظاهر في الحياة... وصدق الله القائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٥ ـ النور:

القرآن نور يشرق في قلب المؤمن فيزهر بالإيمان، ويشرق في حياته فينيرها له، ويشرق في سماء الأمة فيكون ضياء وسعادة وهدى وخيراً، ويشرق في البشرية فتعرف مواقعها وتهتدي إلى طريقها ـ إن أرادت سواء السبيل ـ قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التغابن: ٨].

٦ ـ الفرقان:

به يفرق بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين النور والظلمات، ففيه وحده الحق والهدى والنور، ونقيضه وضده هو باطل وضلال وظلام.. قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ..﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

٧ ــ البرهان:

فهو برهان من الله لعباده، أقام به الحجة عليهم، وأظهر من خلاله أوضح الدلالات وأقواها، على موضوعاته ومعانيه وحقائقه، في العقيدة والحياة.. وكل من تعامل مع أدلة القرآن في يسرها ووضوحها وتفاعل القلب والعقل معها، وقارنها بالأدلة والبراهين والأقيسة التي أوجدتها العقول البشرية وقررتها وبينتها، كل من فعل ذلك يدرك طرفاً من البرهان القرآني ويسره ووضوحه.. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤ ــ ١٧٥].

٨ ــ والقرآن موعظة وشفاء، وهدى ورحمة للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

إنه موعظة من الله، وهل هناك أبلغ من الموعظة الربانية؟ وأيسر منها؟ وأكثر منها نفاذاً إلى القلب والضمير؟.. إن مواعظ البشر مهما سمت في البلاغة والتأثير، عاجزة عن أن تقارب الموعظة القرآنية أو تدانيها، ولو أقبل الدعاة والوعاظ على الموعظة القرآنية وخاطبوا المسلمين بها، لتغلغل الكلام في قلوبهم، وتأثرت به أعمالهم، وصلحت به حياتهم.. وأي قلب لم تنفعه الموعظة القرآنية فهو ميت لا ينفعه شيء آخر..

والموعظة القرآنية تولد الشفاء للصدور، والقضاء على ما في هذه الصدور من أمراض وأدناس وأرجاس، ليعود لها نورها، وتعمل فيها فطرتها المؤمنة التي فطر الله الناس عليها، والقرآن قادر بإذن الله على أن يشفي الصدور والقلوب من مختلف أمراضها المادية والنفسية، أمراض

الشبهات والشهوات، وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشك والشرك، وأمراض القلوب والنفوس والجوارح والحواس، وأمراض السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والحياة والحضارة.. بهذا المفهوم الموسع الشامل يجب أن ننظر للشفاء القرآني، وأن نتناوله بهذه السعة والإحاطة، لا أن نقصره على آلام الرأس والسن والبطن، أو نحوله إلى تعاويذ وتمائم ورقى وحجب، فنمسخه ونقزمه ونفرغه من هذا المعنى الشامل الواسع، وصدق الله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومما يلفت النظر في الآية أنها جعلت الموعظة القرآنية والشفاء القرآني للناس جميعاً، بينما خصصت الهدى والرحمة بالمؤمنين، وقصرتهما عليهم، مما يجعل الإيمان شرطاً للهدى والرحمة.

٩ ـ والقرآن بصائر تهدي:

قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٠]. وهذه البصائر القرآنية الربانية الهادية موجهة للناس جميعاً، ولكن هذه البصائر لا تدركها إلاَّ القلوب الحية، حيث تعيها وتتفاعل معها وترشد بها، وتهتدي على أساسها. إن الأجسام لها العيون التي تبصر بها، وإن القلوب لها البصائر التي تهتدي بها، فالأبصار للأجساد والبصائر للقلوب، وإذا ما تعطلت أبصار الأبدان فقد يعيش الإنسان بدونها، ولكن إذا تعطلت بصائر القلوب فإنها تموت، ولا يبقى فيها نفع أو خير، وصدق الله القائل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦].

وهذه البصائر القرآنية الهادية، تستقبلها القلوب المؤمنة، وتفتح لها منافذها وأصداءها، فتزداد أيماناً وهدى واستقامة ويقيناً، بينما القلوب القاسية الكافرة الغليظة توصد منافذها أمام هذه البصائر، وتحكم إقفالها دونها، وتبالغ في وضع الأقفال عليها، وأنى لها أن تهتدي بها، إنها تزيد هذه القلوب الكافرة كفراً ورجساً وظلاماً وعمى. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

ونختم هذه السمات والأسماء والأوصاف والآثار والنتائج بهذه الآيات التي توضح طبيعة القرآن أولاً، والحياة الناتجة عنه ثانياً، وتفاعل المؤمنين به عندما يسمعونه، وانفعال قلوبهم المؤمنة المبصرة الهينة اللينة به، والآثار المترتبة على ذلك، والتي تبرز على الجوارح والجلود، ثم النتيجة لهذا كله وهي الهدى الرباني، الذي يعتبر ثمرة مباركة يانعة للشجرة القرآنية الخالدة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢١ ـ ٢٣].

● ● ●

وصف رسول الله عليه الصلاة والسلام للقرآن

وصف رسول الله ﷺ القرآن الكريم بصفات صادقة، وأشار في أحاديثه إلى بعض سمات القرآن وفضائله ومزاياه، وتحدث عن بعض آثاره ومهمته في الحياة، وبيَّن منزلة أصحابه وحملته والمطبقين له والداعين إليه في الدنيا والآخرة. وكلام الرسول عليه الصلاة والسلام عن القرآن كلام العارف به، والمحب له، المطلع على علومه، المدرك لمزاياه وسماته ودوره ومهمته، لأنه نزل على قلبه الشريف، فهو أدرى البشر بكلام الله، وأكثرهم خبرة به، ولذلك تنعكس هذه الصفات على كلامه وحديثه، ومن أجل هذا كان لحديثه عن القرآن لون خاص، ودلالة مميزة، وإيحاء فريد.

ونقدم فيما يلي طائفة مما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ عن القرآن لنضيف مزيداً من سمات القرآن وصفاته ومزاياه وفضائله ومهمته وآثاره..

١ ــ روى البخاري والترمذي وأبو داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

٢ ــ روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة: ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: لا ريح لها وطعمها مر..».

٣ ـ روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تلفتاً[1] من الإبل في عقلها».

٤ ـ روى البخاري ومسلم والنسائي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مَثَل صاحب القرآنِ كمَثَلِ صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت..» وزاد مسلم: «وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره وإن لم يقم به نسيه».

٥ ـ روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران».

٦ ـ روى مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إقرأُوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

٧ ـ روى مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، تحاجان عن صاحبهما».

٨ ـ روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين..».

٩ ـ روى أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: إقرأ وارق، ورتل كم كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها..».

١٠ ـ روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف. ولكن: ألف حرف ولام حرف وميم حرف..».

١١ ــ روى الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب..».

١٢ ــ روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلاّ في اثنتين: رجل آتاه القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار..».

١٣ ــ روى مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «.. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله عز وجل، ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة. وذكرهم الله فيمن عنده».

١٤ ــ روى الترمذي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه مر على قارىء يقرأ القرآن ثم يسأل الناس، فاسترجع عمران (أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون)، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوام يقرأُون القرآن، ويسألون به الناس..».

١٥ ــ روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا الأعرابي والعجمي. فقال اقرأُوا فكل حسن. وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه..».

والقدح هو السهم قبل أن يراش. أي لا عليكم ألا تقيموا ألسنتكم أثناء القراءة إقامة السهم عند إعداده للرمي، فإنه سيأتي أقوام يقيمون حروف القرآن وألفاظه، يمططون أصواتهم في القراءة، ويجودونها بتفخيم المخارج، ومع ذلك يطلبون بهذا كله العاجلة وليس الآجلة.

١٦ ـ روى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «اقرأُوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه».

• • •

القرآن في عبارات لأهل القرآن

ننتقل الآن إلى كلام أهل القرآن حول القرآن، من الصحابة والتابعين والعلماء اللاحقين، لنورد طائفة من أقوالهم وعباراتهم التي يتحدثون بها عنه، ويعرضون ما يلاحظونه من سماته وأوصافه، وما يعيشون من حقائقه ولطائفه وظلاله، وما يجدون من آثاره وأغراضه ومهمته.

ونبدأ هذه الأقوال بعرض طائفة من أقوال الصحابة الكرام، الذين هم الجيل القرآني الفريد، وأكثر الناس دراية بالقرآن وحياة به، وعلماً بموضوعاته، وإدراكاً لسماته وصفاته.

١ ــ روى الترمذي عن الحارث بن عبد الله الهمداني ــ الأعور ــ قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت فأخبرته، فقال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم. قال أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى

ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١ ــ ٢] من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم».

وقد ضعف العلماء هذا الحديث لأن في سنده مجهول، والحارث الأعور ضعيف، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال..».

ويبدو أنه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولذلك أوردناه هنا.. علماً بأنه أورد طائفة من سمات القرآن وأوصافه، ذات دلالة صادقة عليه، ويمكن أن يلاحظ البعد الواقعي لهذه الصفات والسمات (جامع الأصول لابن الأثير ٨: ٤٦١ ــ ٤٦٢) وقد قال عنه الإمام المحدث ابن كثير في فضائل القرآن: «والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده.. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح..» [فضائل القرآن: ٥].

٢ ــ قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «جمع الله في هذا الكتاب علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وعلم ما يكون، والعلم بالخالق جل جلاله، وأمره وخلقه..» [جامع الأصول: ٨/ ٤٦٤ ــ ٤٦٥].

٣ ــ روى عامر بن واثلة رحمه الله أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان ــ وكان عمر استعمله على أهل مكة ــ فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ قال: ابن أبزى.. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا! قال فاستخلفتَ عليهم مولى! قال: إنه قارىء لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إنَّ نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين..» [جامع الأصول: ٨/ ٥٠٧].

٤ ــ روى أبو الأسود الدؤلي قال: «بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن. فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسوا قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم. .» [جامع الأصول: ٢/ ٤٥٢].

٥ ــ قالت عائشة رضي الله عنها: كان أبو بكر إذا قرأ القرآن كثير البكاء، في صلاة وغيرها. وقالت أيضاً: «القرآن أكرم من أن يزيل عقول الرجال. .» [جامع الأصول: ٢/ ٤٦٦ ــ ٤٦٧].

٦ ــ وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: ما كان أحد من السلف يغشى عليه ولا يصعق عند قراءة القرآن، وإنما يبكون ويقشعرون، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله. .» [جامع الأصول: ٢/ ٤٦٧].

٧ ــ وأورد الإمام مالك في الموطأ قول محمد بن سيرين رحمه الله: أن عمر بن الخطاب كان في قوم يقرأون القرآن، فذهب لحاجته، ثم رجع وهو يقرأ القرآن، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أتقرأ القرآن ولست على وضوء؟ فقال له عمر: من أفتاك بهذا؟ أمسيلمة؟ [جامع الأصول: ٢/ ٤٦٩].

٨ ــ قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: «يا معشر القراء، استقيموا فقد سَبقتم سبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً. .» [جامع الأصول: ٢/ ٤٧١].

٩ ــ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته، كهولاً وشباباً». [التبيان في آداب حملة القرآن للنووي: ١١].

١٠ ــ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا حملة القرآن

ـ أو يا حملة العلم ـ : اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله.. وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقاً يباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه.. أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى..» [التبيان للنووي: ١٧].

١١ ـ قال عمر بن الخطاب مخاطباً حفظة القرآن وأهله: «يا معشر القراء: ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، لا تكونوا عيالاً على الناس» [التبيان: ٢٨].

١٢ ـ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون..» [التبيان: ٢٨].

١٣ ـ قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار..» [التبيان: ٢٨].

١٤ ـ قدم ناس من اليمن على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فجعلوا يقرأون ويبكون، فقال أبو بكر: هكذا كنا..» [التبيان: ٤٨].

١٥ ـ قال رجل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة (والمفصل هو سور القرآن من الحجرات حتى سورة الناس وسمى المفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة)، فقال ابن مسعود: هَذّاً، كهذِّ الشعر، إن أقواماً يقرأُون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع» [التبيان: ٤٩].

١٦ ــ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا يسأل عبد عن نفسه إلَّا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله..» [فضائل القرآن للإمام ابن كثير: ٦].

١٧ ــ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن بعض سور القرآن واعتزازه بها وغناه بها وهي سور: الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء «إنهن من العتاق الأول، وإنهن من تلادي» [فضائل القرآن لابن كثير: ٢٥].

١٨ ــ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي له لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس» [تفسير القرطبي: ١/ ٢٠].

١٩ ــ قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن، لأن في جوفه كلام الله» [القرطبي: ١/ ٢١].

٢٠ ــ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إنَّا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به [القرطبي: ١/ ٤٠].

٢١ ــ قال عبد الله بن مسعود: «إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين» [إحياء علوم الدين مجلد: ١/ ٤٩٨].

٢٢ ــ قال أنس بن مالك: «رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه» [الإحياء: ١/ ٤٩٩].

٢٣ ــ قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم

لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل؟ [الإحياء: ١/ ٥٠٠].

٢٤ ــ قال عثمان بن عفان وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: «لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن. .» [الإحياء: ١/ ٥٢٢].

٢٥ ــ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن» [الزهد لابن المبارك: ٢٧٢].

٢٦ ــ قال أبو هريرة رضي الله عنه: «البيت الذي يتلى فيه كتاب الله كثر خيره، وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشياطين. والبيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله ضاق بأهله، وقل خيره، وحضرته الشياطين، وخرجت منه الملائكة. .» [الزهد لابن المبارك: ٢٧٣].

٢٧ ــ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (من قرأ القرآن فقد أُدرجت النبوة بين جنبيه إلاَّ أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أحداً من خلق الله أعطي أفضل مما أعطي فقد حقر ما عظم الله، وعظم ما حقر الله، وليس ينبغي لحامل القرآن أن يجهل فيمن يجهل، ولا يحد فيمن يحد، ولكن يعفو ويصفح [الزهد لابن المبارك: ٢٧٥ ــ ٢٧٦].

وهذه طائفة من أقوال التابعين وتابعيهم الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالخيرية يتحدثون فيها عن القرآن الكريم:

١ ــ قال الفضيل بن عياض رحمه الله: ينبغي لحامل القرآن أن لا تكون له حاجة إلى أحد من الخلفاء، فمَنْ دونهم، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه» وعنه قال: «حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيماً لحق القرآن. .» [التبيان: ٢٨ ــ ٢٩؛ وإحياء علوم الدين: ١/ ٤٩٩].

٢ ـ قال إبراهيم الخواص ـ وقيل إبراهيم النخعي ـ رحمه الله «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين» [التبيان: ٤٦].

٣ ـ الأعمش قال: دخلت على إبراهيم (النخعي) وهو يقرأ بالمصحف، فاستأذن عليه رجل فغطاه!! وقال: «لا يرى هذا أني أقرأ كل ساعة».

وعن أبي العالية قال: كنت جالساً مع أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، فقال رجل منهم: قرأت الليلة كذا.. فقالوا: هذا حظك منه». وكأنه لا أجر له عند الله، لأنه يطلب الثناء من الناس، ولذلك أخذ حظه منه المتمثل في ثناء الناس. [التبيان: ٦٠].

٤ ـ عن طاووس رحمه الله قال: «أحسن الناس صوتاً بالقرآن أخشاهم لله». [فضائل القرآن لابن كثير: ٣٦].

٥ ـ كان أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي الكوفي ـ قد قعد يعلم الناس القرآن منذ إمارة عثمان إلى أيام الحجاج.. قالوا وكان مقدار ذلك الذي مكث يعلم فيه القرآن حوالي سبعين سنة!! [فضائل القرآن: ٤٠].

٦ ـ قال الضحاك بن مزاحم: ما من أحد تعلم القرآن فنسيه إلاَّ بذنب يحدثه، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب» [فضائل القرآن: ٤٣].

٧ ـ ذكر ابن أبي الحواري قال: أتينا فضيل بن عياض ونحن جماعة، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن

كان خارجاً لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن! فأمرنا قارئاً فقرأ، فأطلع علينا من كوة، فقلنا: السلام عليك ورحمة الله فقال: وعليكم السلام. فقلنا: كيف أنت يا أبا علي، وكيف حالك؟ فقال: أنا من الله في عافية، ومنكم في أذى، وإن ما أنتم فيه حدث في الإسلام، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكنا كنا نأتي المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلاً للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مر الحديث سألناهم إعادته فقيدناه، وأنتم تطلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب الله، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون. قلنا: قد تعلمنا القرآن! قال: إن في تعلمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم، قلنا: كيف يا أبا علي؟ قال: لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه من متشابهه، وناسخه من منسوخه، إذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة» [تفسير القرطبي: ١/ ٢٢].

٨ ــ قال مجاهد: «أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل» [القرطبي: ١/ ٢٦].

٩ ــ قال الحسن البصري: والله ما أنزل الله آية إلاّ أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعني بها» [١/ ٢٦].

١٠ ــ قال أبو سليمان الداراني: «الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان..» [إحياء علوم الدين: ١/ ٤٩٩].

١١ ــ قال الحسن البصري: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله.. وإنَّ من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار [الإحياء: ١/ ٥٠٠].

١٢ ـ قال مالك بن دينار: ما زَرَعَ القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض. . [الإحياء: ١/ ٥١٨].

١٣ ـ قال قتادة: لم يجالس أحد القرآن إلاَّ قام بزيادة أو نقصان. قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٨]، [الإحياء: ١/ ٥١٨].

١٤ ـ قال ثابت البناني: «كابدت القرآن عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة» [١/ ٥٢٢].

١٥ ـ قال مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١] «يعملون به حق العمل» [الزهد لابن مبارك: ٢٧٣].

١٦ ـ قال الحسن البصري: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله. . وما تدبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده. . حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول إني لأقرأ السورة في نَفَس! والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء مثل هذا؟. . لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. . » [الزهد: ٢٧٤].

١٧ ـ قال قتادة في قول الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣] أتاهم والله من أمر الله، ما وقذهم عن الباطل. وقذهم: يعني صرفهم وأبعدهم [الزهد: ٢٧٦].

• • •

من آداب تلاوة القرآن

حتى تكون تلاوة القرآن نافعة، وحتى تعطي ثمارها من التدبر والتأثر والاستقامة، وحتى تُؤدى كما كان يؤديها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فلا بد من ملاحظة آدابها والالتزام بها ومراعاتها قبيل التلاوة وأثناءها.

وقد استخرج العلماء هذه الآداب من خلال تعاملهم مع القرآن، حيث عرفوا بعضها من سنة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه، وأدركوا بعضها من خلال تعاملهم الحي مع القرآن الكريم، وتجربتهم الغنية معه.

ومعظم الذين كتبوا عن تلاوة القرآن عرضوا لطائفة من آدابها ومستحباتها، وحذروا من مكروهاتها. ومن أشهر الذين تحدثوا عن ذلك حجة الإسلام أبو حامد الغزالي حيث عرض عشرة من أعمال الباطن ــ في نفس القارىء ــ للقرآن. ومن هؤلاء الإمام النووي الذي ألَّف كتاباً ممتعاً نافعاً هو «التبيان في آداب حملة القرآن» وخصص البابين الخامس والسادس منه لآداب التلاوة.. وقد اطلع السيوطي على ما ذكره الغزالي والنووي ــ وغيرهما من العلماء ــ عن آداب التلاوة فأورد في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن» طائفة من هذه الآداب.. أما الكاتبون المعاصرون عن القرآن فقد عرضوا طائفة من آداب التلاوة التي ذكرها العلماء، ومنهم الإمام حسن البنا في رسالته «المأثورات»، ونبيه عبد ربه في رسالته «كيف نحيا بالقرآن»؟.

وسوف أضع بين يدي القارىء الكريم أهم هذه الآداب، بأخصر الألفاظ وأوجزها وأوفاها.

١ ــ إختيار الوقت المناسب لتلاوة القرآن، والذي يتجلى الله فيه على عباده، وتنزل فيه فيوضات رحمته، وأفضل الأوقات ما كان في الثلث الأخير من الليل وقت السحر، ثم قراءة الليل، ثم قراءة الفجر، ثم قراءة الصبح، ثم قراءة باقي أوقات النهار.

٢ ــ إختيار المكان المناسب كأن يكون بيتاً من بيوت الله، أو ركناً في بيته يفرغه من الموانع والشواغل والتشويش، ويبعد عنه الضجيج والصياح والكلام الدنيوي ولعب وعبث الأطفال، وجميل جداً أن يتلو القرآن في حديقة جميلة، أو نزهة ممتعة إلى المناظر الخلابة.. هذا ومن الجائز أن يتلو القرآن وسط الكلام والضجيج والزحام، كأن يكون في جلسة مع آخرين، أو سائراً في الطريق العام أو راكباً سيارة أو غيرها، وإن كان التدبر في هذا قليلاً.

٣ ــ إختيار الجلسة المناسبة والحالة الخاصة والهيئة الصالحة لأن يتلقى عن الله.. وهي التي تتجلى فيها عبوديته لله، ويبرز فيها تذلله وخضوعه، وأفضل الجلسات لمريد التلاوة: أن يستقبل القبلة جالساً جلسة التشهد للصلاة ــ وهي أظهر الجلسات عبودية ــ فإذا تعب من هذه الجلسة فليحاول أن يجلس جلسة أخرى مناسبة مستقبلاً القبلة، وله أن يجلس أية جلسة شاء، على أن يظهر منها توقيره لكلام الله، وتذلله لله، وإجلاله له..

٤ ــ الطهارة الخارجية فلا بد أن يكون متطهراً من الجنابة، وأن تكون المرأة متطهرة من الجنابة والحيض والنفاس، ويفضَّل للرجل والمرأة أن يكونا متطهرين من الحدث الأصغر أيضاً بأن يكونا متوضئيْن، ليُحسنا التلقي عن الله سبحانه.. ولكن يجوز لهما أن يقرآ القرآن ــ للعبادة

أو للحفظ أو للعلم أو للتعليم ـ على غير وضوء، لعدم ورود دليل من القرآن يمنع ذلك، ولعدم صحة الأحاديث التي تشترط ذلك. . هذا وقد أفتى العلماء للمرأة التي تمارس العلم والتعليم ـ معلمة أو طالبة ـ أن تقرأ القرآن للتعلم أو التعليم وهي حائض أو نفساء للضرورة.

٥ ـ تطهير أدوات التلاوة التي يتعامل مع القرآن من خلالها، وتنظيفها مما علق بها من معاصٍ وذنوب ومنكرات، لأن نظافة وطهارة الوعاء شرط للانتفاع بالمضمون! فكيف يحسن تلاوة القرآن وتدبره وفهمه بعين لوثتها النظرات المحرَّمة؟ أو بأذن دنستها الأصوات المنكرة ومزامير الشيطان؟ أو بلسان نجسته الغيبة والنميمة والكذب والافتراء والسخرية والاستهزاء؟ وكيف يعي القرآن ويتفاعل معه قلب عليه أكنة وأغطية وحجب وموانع الشبهات والشهوات والرغبة في المعاصي والمنكرات، والإقبال على الرذائل والمحرمات، وقد أفسدته الأمراض والآفات من الرياء والعجب والتكبر؟

إن القرآن كالمطر، فكما أن المطر لا يؤثر في الجماد والصخر، ولا يتفاعل معه إلَّا التربة المهيأة، فكذلك القرآن لا بدَّ أن ينزل على بيئة صالحة ليتفاعل معها، ويؤثر بها، ويحيا من خلالها، وهذه البيئة هي الحواس والقلوب التي تقبل عليه.

٦ ـ إستحضار النية عند التلاوة، والإخلاص الكامل لله، والتجرد من كل غرض دنيوي، وذلك حتى يثاب على تلاوته وعمله وعبادته، لأن الأعمال بالنيات، ولأن العلم والفهم والتدبر محض نعمة من الله ورحمة، ورحمة الله لا تمنح لمن اجتمع في قلبه التخليط والتدليس والتلبيس!!

٧ ـ الالتجاء إلى الله، والعوذ به، والاحتماء بحماه، والإقبال عليه

إقبال المضطر، أو الغريق الطالب النجاة، والتبرء من كل حول أو قوة، أو علم وعقل وفهم وفطنة، والاعتقاد الجازم بأن كل هذا لا نفع له إذا لم يمنَّ الله على صاحبه التدبر والفهم والتأثر والالتزام.

٨ ــ الاستعاذة والبسملة. تنفيذاً لتوجيهات القرآن للقارئين، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨]، وعليه أن يعيش معنى الاستعاذة، وأن يتدبرها، وأن يكون صادقاً بكيانه كله في نطقها، لتتحقق الاستعاذة المطلقة بالله سبحانه، وذلك حتى يعيذه الله ويبعد عنه كيد الشيطان، وذلك لأن الله وعد المؤمن إذا استعاذ بالله من الشيطان ــ إنسياً أو جنياً ــ فإنه يعيذه ويبعده عنه: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٥ ــ ٤٦].

أما البسملة فيأتي بها عندما يقرأ السورة من أولها ــ باستثناء سورة براءة ــ ويندب له أن يأتي بها عند قراءته من وسط السورة، ويندب له أن يأتي بها إذا قطع تلاوته لعارض ثم عاد إليها. والإتيان بالبسملة من باب التبرك والتيمن بذكر اسم الله، واستدرار فيوضاته وبركاته ورحماته سبحانه.

٩ ــ تفريغ النفس من شواغلها، وقضاء حاجاتها، وتلبية طلباتها قبل الإقبال على القراءة، وذلك لأن الحاجات تبقى تلح على النفس وتخايل لها، وبذلك تحجب القلب عن التدبر والوعي والتلقي.. فلا يكون قارىء القرآن ــ أثناء قراءته ــ جائعاً أو عطشاً، أو مهموماً قلقاً مضطرباً، أو يعيش في برد شديد أو حر مؤذ، أو جالساً في مكان عام ينظر فيه للغادين والرائحين وينشغل بهم، أو جالساً أمام التلفاز عينه في القرآن وأذنه تسمع التلفاز، أو منتظراً تقديم الطعام ونفسه وأحاسيسه مشغولة باستقباله.

١٠ ـ حصر الفكر أثناء التلاوة وجعله مع القرآن فقط، وقصر الخيال على الآيات، ومنعه من الشرود والتجوال مع مظاهر الحياة وظواهرها، وتوظيف كل نوافذ المعرفة ووسائل التدبر وعوامل التلقي، في النفس والمشاعر والأحاسيس والفكر والخواطر والخيال.. توظيفها للقرآن فقط، وإعادة كل من حاول الخروج عن هذه المهمة. فإذا ما فعل القارىء هذا فإنه سيخرج بزاد عظيم من التلاوة وسيحصل نتائج باهرة وثماراً يانعة.

١١ ـ استحضار الخشوع اللائق بكتاب الله وتلاوته، واستجلاب التأثر والانفعال، وملاحظة بعض نماذج الخاشعين المتأثرين أثناء التلاوة من الصالحين، لتكون له بهم قدوة.

١٢ ـ البكاء أثناء التلاوة، وبخاصة إذا قرأ آيات العذاب، أو مر بمشاهده، وذلك عندما يستحضر مشاهد القيامة وأحداث اليوم الآخر، ومظاهر الهول فيها، ثم يلاحظ تقصيره في الحقوق، وتفريطه في جنب الله. فإذا لم يستطع البكاء فليحاول التباكي، والتباكي هو استجلاب للبكاء واستقدام له، فإذا عجز عن البكاء وعن التباكي فليحاول أن يبكي على نفسه هو، وعلى قلبه وروحه، لكونه محروماً من هذه النعم الربانية، مريضاً بقسوة القلب وجمود العين!!

١٣ ـ تعظيم المتكلم سبحانه وتعالى، والشعور بكرمه وفيوضاته وعطاياه، الذي يخاطب ـ وهو العلي العظيمُ سبحانه ـ عباده الضعاف. وهذا التعظيم يدعوه ـ من جملة ما يدعوه إليه ـ إلى تعظيم كلامه، والإقبال عليه للتفاعل والتدبر والتربية والالتزام. ولعل هذا التعظيم لله ولكلامه، يجعل القارىء ملتزماً بآداب التلاوة الأخرى مستحضراً لها،

ولعله من أهم الوسائل للخروج من التلاوة بزاد عظيم من المعاني والحقائق والدروس والدلالات.

١٤ ـ الوقوف أمام الآيات ليتدبرها ويفهم معانيها، ويدرك حقائقها، ويلاحظ علومها ومعارفها ودروسها ودلالاتها.. لأن هذا هو الهدف من التلاوة، وما نفع تلاوة لا تحقق هذا التدبر؟ ولا تولد هذا الفهم؟ ولا تعطي هذا الرصيد الخير؟

١٥ ـ التأثر والانفعال بالآيات حسب موضوعاتها وسياقها، فتجده يفرح إذا قرأَ آيات التبشير والرجاء والأمل، ويحزن ويبكي عند آيات الإنذار والتهديد والوعيد، ويسر إذا قرأ آيات النعيم، ويخاف عند آيات العذاب، ويعرض نفسه على آيات صفات المؤمنين ليستكمل الناقص، وعلى آيات صفات الكافرين والمنافقين ليتخلى عما علق به منها، ويفتح حواسه على الأوامر والتكاليف الربانية ليعمل بها، وعلى المنهيات والمحرمات ليبتعد عنها.

وإذا قرأ آية نعيم سأل الله أن يكون من أهله، وإذا قرأ آية عذاب تعوذ بالله منه، ويجيب على استفهامات القرآن وأسئلته، وينفذ الأوامر والتكاليف، ويتبرأ من الكفار وصفاتهم، ويُقبل على المؤمنين ويوثق ولاءه لهم.. وهكذا..

١٦ ـ الشعور بأن القارىء نفسه هو المخاطب بالآيات، وهو الذي وجهت إليه التكليفات، ثم يعيش هذا الشعور، ويدرك نتائجه وآثاره على نفسه وكيانه كله.. وبذلك يقف طويلاً أمام الآية، ويعرف ماذا تطلبه منه وماذا تنهاه عنه.. وتستوقفه آيات التكاليف المبدوءة بـ : يا أيها الذين آمنوا، ويا أيها الناس، ويا أيها الإنسان، ويفتح لها كل منافذ التلقي

والانفعال والاستجابة، لأن ما بعدها إما أمر للتنفيذ، أو نهي عن محظور، أو عتاب وتذكير، أو توجيه إلى خير وهدى..

١٧ ـ التخلي عن موانع الفهم لآيات القرآن، وحجب التدبر لها، ومن هذه الموانع والحجب، نقيض الآداب والقواعد التي سبق إيرادها، لأن التلبس بضدها هو حائل يحول بين القارىء وبين القرآن، وحجاب ساتر سميك يستر عنه أنوار القرآن وهداه.. كذلك من موانع وحجب الفهم والتدبر عدم ملاحظة ومراعاة المفاتيح التي سنوردها في المباحث القادمة بعون الله..

١٨ ـ وعلى المستمع للقرآن والمتدبر لما يسمع منه، سواء كان يسمع قراءة قارىء آخر بجانبه، أو يسمعه من قارىء في الإذاعة أو شريط مسجل، عليه أن يلاحظ الآداب السابقة كلها، وأن يزيد عليها حسن السماع، وحسن الإنصات، وحسن التدبر وحسن التلقي، وأن لا يفتح للتلاوة أذنيه فقط، بل يفتح لها كل نوافذ التلقي والاستجابة والانفعال في كيانه ومشاعره وأحاسيسه، وأن يلتزم في سماعه واستماعه التوجيه الرباني الراشد في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٠٤].

ولا يليق بهذا المستمع للقرآن أن يفتح الراديو أو المسجل على قارىء للقرآن وينصرف عنه، ويتشاغل بأشغال أو أحاديث جانبية، وإن اضطر إليها فليغلق الراديو أو المسجل على أن يعود إليه بعدما ينتهي من عمله.. وليس من اللائق أن يغلق الراديو والقارىء ما زال يقرأ، بل ينتظر إلى أن يسكت.

● ● ●

نحو نظرية حركية لتدبُّر القرآن والحياة به

تدبُّر القرآن واجب، والحياة به ضرورة، والحياة في ظلاله نعمة لا يعرفها إلاَّ من ذاقها، نعمة تبارك العمر وترفعه وتزكيه.. ولا يدرك هذا إلاَّ من عاش في ظلال القرآن فعلاً، وتذوق من مظاهر هذه النعمة ما تذوق، ولمس من آثارها ما لمس، ووقف على ما فيها من أنس وسعادة، وراحة وطمأنينة، واسترواح وانشراح (انظر مقدمة الطبعة المنقحة من الظلال وتعريف سيد قطب بسورة الأعراف ــ على سبيل المثال).

ونحب أن نضع بين يدي القارىء الكريم عبارات رصينة ناتجة عن تجربة عملية رائدة، قام بها رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب، ووضعَها بين أيدي قراء الظلال، ونحن سنستخرج منه هذه العبارات، التي هي بمثابة أضواء كاشفة، تنير للقارىء الطريق نحو تدبر القرآن وفهمه، وتطلعه على نظرية لازمة للتعامل مع القرآن، والحركة به، والحياة في ظلاله، وهذه النظرية لا بد أن يطلع عليها المسلمون، ليعرفوا المفتاح الحركي لفتح كنوز القرآن الحركية المذخورة فيه.

إننا ننادي بما نادى به أستاذنا سيد قطب، بنظرية جديدة لفهم القرآن وتدبره وتفسيره، ألا هي نظرية «التفسير الحركي» ونعتبر الأستاذ سيد قطب هو الرائد لها والموضح لأسسها، والمؤسس لمدرسة «التفسير الحركي» التي قدمت القرآن حياً فاعلاً مؤثراً للمسلمين المعاصرين، وهو الذي وضع الله سبحانه بين يديه مفتاحاً أصيلاً هو «المفتاح الحركي» الذي فتح به

كنوز القرآن، وقدمها للناس في الظلال.. (انظر كتابنا: «المنهج الحركي في الظلال»).

يقول في كتابه: «خصائص التصور الإسلامي» عن جوهر النظرية الحركية في فهم القرآن وتدبره وتفسيره والحركة به.

«إن المسألة ــ في إدراك مدلولات هذا القرآن وإيحاءاته ــ ليس هي في فهم ألفاظه وعباراته، ليست هي «تفسير القرآن ــ كما اعتدنا أن نقول! ــ المسألة ليست هذه.. إنما هي استعداد النفس برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب: تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله، وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهي تتلقاه في خضم المعترك.. معترك الجهاد، جهاد النفس وجهاد الناس.. جهاد الشهوات وجهاد الأعداء.. والبذل والتضحية، والخوف والرجاء، والضعف والقوة، والعثرة والنهوض.. جو مكة، والدعوة الناشئة، والقلة والضعف، والغربة بين الناس.. جو الشِّعْب والحصار، والجوع والخوف، والاضطهاد والمطاردة، والانقطاع إلاَّ عن الله.. ثم جو المدينة: جو النشأة الأولى للمجتمع المسلم بين الكيد والنفاق والتنظيم والكفاح.. جو «بدر» و «أُحد» و «الخندق» و «الحديبية».. وجو «الفتح» و «حُنين» و «تبوك» وجو نشأة الأمة المسلمة، نشأة نظامها الاجتماعي، والاحتكاك الحي بين المشاعر والمصالح والمبادىء في ثنايا النشأة وفي خلال التنظيم.

.. في هذا الجو الذي تنزلت فيه آيات القرآن حية نابضة واقعية.. كان للكلمات وللعبارات دلالالتها وإيحاءاتها.. وفي مثل هذا الجو الذي يصاحب محاولة استئناف الحياة الإسلامية من جديد، يفتح القرآن كنوزه للقلوب، ويمنح أسراره، ويشيع عطره، ويكون فيه هدى ونور..» [خصائص التصور الإسلامي: ٧ ــ ٨].

من هذه الفقرة الكاشفة يتبين لنا بعض الأسس التي بنى عليها نظريته الحركية في التفسير. منها:

١ ــ تزوده برصيد ضخم من المشاعر والمدركات والتجارب، واستصحابه لها وهو ينظر في نصوص القرآن ويتلقى إيحاءاته..

٢ ــ ذهابه ــ بخياله ومشاعره وأحاسيسه ــ إلى الجو الذي تنزل فيه القرآن في مكة والمدينة، لإدراك أثر القرآن وتأثيره هناك..

٣ ــ ملاحظته حركة الصحابة ــ في جو مكة والمدينة ــ بالقرآن وتفاعلهم معه وحياتهم به.

٤ ــ وقوفه على الأغراض الأساسية للقرآن، ومنهجه الواقعي الحركي الذي صاغ به حياة الأمة المسلمة، وتنزيله نصوص القرآن على واقع جدي حي مجاهد.

٥ ــ قيامه بدور عملي جهادي، وتجربة حية دعوية، مشابهة ــ في بعض مظاهرها ــ لتجربة الصحابة الكرام ــ وبخاصة في جو «مكة»، والحركة العملية الجهادية بالقرآن، وشغل النفس والمشاعر والكيان بشواغلها واهتماماتها، وهمومها وآلامها.. والإقبال ــ من ثَمَّ ــ على القرآن ليجد عنده الجواب الواضح والبلسم الشافي..

وإذا ما انتقلنا إلى «في ظلال القرآن» لنبحث عن عبارات توضح النظرية الحركية في تدبر القرآن وتفسيره فإننا نجدها وافرة متفرقة في ثناياه.

يدعونا سيد قطب إلى أن نعيش في جو القرآن ــ كما عاش هو ــ للوقوف على أسراره وطبيعته وكنوزه.. «الحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن وقراءته والاطلاع على علومه.. إن هذا ليس «جو القرآن»

الذي نعنيه. . إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جو، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع، وفي اهتمامات. . كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن. . أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم، وفي قلبه وفي همه وفي حركته، أن «ينشىء» الإسلام في نفسه، وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس. . مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية، بكل تصوراتها وكل اهتماماتها وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي، وكل ضغطها كذلك عليه، وحربها له، ومناهضتها لعقيدته الربانية، ومنهجه الرباني، وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة، بعد الكفاح والجهاد والإصرار. .

هذا هو الجو القرآني الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان، فيتذوق هذا القرآن، فهو في مثل هذا الجو نزل، وفي مثل هذا الخضمّ عمل. . والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن، مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه. .

والمحاولة التي نبذلها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن، ليست بالغة شيئاً، إلاَّ بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة، ويصلوا إلى المنطقة الأخرى، ويحاولوا أن يعيشوا في «جو القرآن» حقاً، بالعمل والحركة، وعندئذٍ فقط سيذوقون هذا القرآن ويتمتعون بهذه النعمة التي ينعم الله بها على من يشاء. . [الظلال ٢/١٠١٦ ــ ١٠١٧].

ويدلنا على الطريقة الصحيحة لقراءة القرآن وتدبره والوقوف على أسراره وكنوزه فيقول: «إن هذا القرآن ينبغي أن يقرأ، وأن يُتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي. وينبغي أن يُتدبر على أنه توجيهات حية، تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود.

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كانت الجماعة الإسلامية الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعية.. وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد. وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية، تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق..» [الظلال: ١/ ٦١].

ويشير ـ في تعريفه بسورة آل عمران سورة المعركة والحركة ـ إلى الحياة في القرآن وإلى شروط الحصول عليها وإدراكها.. «ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثل في حسنا، ونستحضر في تصورنا أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية، ذات وجود حقيقي، ووجهت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمة.

.. وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهوّمة، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية..

.. ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة، في فترة من فترات التاريخ محددة، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها.. ولكنه ـ مع هذا ـ يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها..

.. ولكي نحصل نحن من القرآن على قوته الفاعلة، وندرك حقيقة ما فيه من الحيوية الكامنة، ونتلقى منه التوجيه المدخر للجماعة المسلمة في

كل جيل.. ينبغي أن نستحضر في تصورنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة، كينونتها وهي تتحرك في واقع الحياة..

.. إننا بهذه النظرة سنرى القرآن حياً يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأولى. ويملك أن يعمل في حياتنا نحن أيضاً. وسنحس أنه معنا اليوم وغداً. وأنه ليس مجرد تراتيل مهوّمة بعيدة عن واقعنا المحدد..» [الظلال: ١/٣٤٨ ــ ٣٤٩ باختصار].

ويدلنا على طريق التعامل مع القرآن وفهم نصوصه بقوله: «إن النصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب.. إنما تُدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في جوها التاريخي الحركي، وفي واقعيتها الإيجابية، وتعاملها مع الواقع الحي.. وهي لا تتكشف عن هذا المدى البعيد إلاّ في ضوء ذلك الواقع التاريخي.. ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم، وفاعليتها المستمرة، ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين وحدهم، ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزلت هذه النصوص عليهم أول مرة، ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان أولئك يواجهون. ولن تتكشف أسرار هذا القرآن قط للقاعدين، الذين يعالجون نصوصه في ضوء مدلولاتها اللغوية والبيانية فحسب.. وهم قاعدون» [الظلال: ٣/ ١٤٥٣ باختصار].

إن القرآن له طبيعة حركية وله مهمة واقعية حية متحركة، ونتيجة لهذا لن يتذوق هذا القرآن ولن يحسن التعامل معه إلاّ من يتحرك به فعلاً في عالم الواقع.. يقول: «إن هذا القرآن لا يتذوقه إلاّ من يخوض مثل هذه المعركة، ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها. والذين يلتمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون. يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة

الساكنة، بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة.. إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً، وإن سرَّه لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله، والدينونة للطاغوت من دون الله..) [الظلال: ١٨٦٤/٤].

ويؤكد على هذا المعنى في موطن آخر بعبارات أخرى قائلاً: «وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرك القرآن في طلائع البعث الإسلامي، ويحركها كذلك في طريق الدعوة المرسوم.

إن هذه الطلائع في حاجة إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه. تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها، وتستوحيه في ما يصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات، وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق.

والقرآن ـ بهذه الصورة ـ لا يعود مجرد كلام يتلى للبركة، ولكنه ينتفض حياً يتنزل اللحظة على الجماعة المسلمة المتحركة لتتحرك به، وتتابع توجيهاته، وتتوقع موعود الله فيه..

وهذا ما نعنيه بأن هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلاَّ للعصبة المسلمة التي تتحرك به لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرأونه لمجرد التبرك! ولا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية والعلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه!.

إن هؤلاء جميعاً لن يدركوا من هذا القرآن شيئاً يذكر. فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو، إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه..» [في ظلال القرآن: ١٩٤٨/٤].

وننتهي من هذه النقول الكاشفة التي أخذناها من الظلال، إلى ضرورة إحسان فهم القرآن وتدبره، والتفاعل معه من خلال نظرية حركية في ذلك،

وباستعمال مفاتيح هادية لذلك التعامل والتدبر. . لأن هذا هو الذي يتفق مع طبيعة هذا القرآن الأساسية، وسمته المطردة، ألا هي «الواقعية الحركية» مفتاح التعامل مع هذا الكتاب العجيب المعجز. .

ونختم هذه النقول بهذه الفقرة الرائدة لسيد قطب، التي توضح هذه السمة، وتدل على المفتاح لهذه النظرية، وتدعو إلى هذا المنهج. . ومن مزيتها أنها تمثل خلاصة رأيه في هذا، وهو الرأي النهائي الأخير الذي استقر عليه وأصبح عنده بدهية يقينية، وحقيقة قطعية. . لأنه أوردها في تعريفه بسورة الحجر ــ من الطبعة المنقحة ــ وهو الذي كتبه قبيل اعتقاله الأخير بأيام ــ أو بساعات ــ!!.

يقول: «. . ومن ثم تواجه حاجات الحركة الإسلامية ومقتضياتها كلما تكررت هذه الفترة (الفترة الحرجة في الدعوة الإسلامية في مكة ما بين عام الحزن والهجرة)، وذلك كالذي تواجهه الحركة الإسلامية الآن في هذا الزمان. .

ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن. . سمة الواقعية الحركية. . لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب، وفهمه وفقهه، وإدراك مراميه وأهدافه. .

إنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني. . لا بدَّ من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي، ويواجه حالة واقعة، كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده. . وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها، كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية، وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية.

نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلاَّ الذين يتحركون فعلاً بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة، ومن ثم يواجهون أحوالاً وملابسات وظروفاً وأحداثاً كالتي كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى صلوات الله وسلامه عليه والعصبة المسلمة معه..» [في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٢١ ـ ٢١٢٢].

● ● ●

الخطوات المتدرجة لفهم القرآن والتعامل معه

على قارىء القرآن أن يحسن قراءته وفهمه والتدبر فيه، والوقوف على تفسيره، بإيجاز قاصد ذي دلالة على الغرض القرآني، وأن يعرف كيف يتعامل معه ويتلقى عنه ويعيش به.. لذلك عليه أن يتبع ــ في قراءته له ــ طريقاً محدداً، ذا خطوات متدرجة واضحة، ومراحل متتابعة. ونشير بدورنا إلى هذه الخطوات والمراحل، ومن الله نستمد العون والتوفيق..

١ ــ أن يلاحظ آداب التلاوة ــ التي عرضنا أهمها فيما سبق من هذا الكتاب ــ وأن يراعيها ويلتزمها ويطبقها، حتى يحسن الدخول إلى عالم القرآن، والعيش في جو القرآن، واستحضار معانيه وحقائقه، واستقدام دلالاته ولطائفه، واستشعار ظلاله وإيحاءاته.. ومن لم يلتزم تلك الآداب فكيف يتلقى عن القرآن؟

٢ ــ التلاوة للسورة أو الجزء أو المقطع بتأنٍ وخشوع وتدبر، وباسترسال وبطء وانفعال.. وأن لا يكون همه نهاية السورة أو خاتمة الجزء، ولا غرضه كم صفحة قرأ وكم آية تلا، وكم حسنة جمع، وأن لا تخايل له هذه الأمور، حتى لا تتحول إلى حجاب بينه وبين التدبر، وحاجز سميك يحجز عنه أنوار القرآن ولطائفه..

٣ ــ الوقوف أمام الآية التي يقرأُها، وقفة متأنية فاحصة مكررة، ليستخرج منها بعض ما يمنّ الله عليه من كنوزها وعلومها ومعارفها

ومعانيها. . وأن لا يقرأها بعينه فقط، أو يسمعها بأذنه فقط، بل يقرأها بكل كيانه، ويسمعها بكل مشاعره وأحاسيسه، وأن يعيشها بكامل كينونته الإنسانية، وأن ينفعل بها ويتأثر لها، ويفتح لها حياته كلها.

عليه أن يمعن النظر في الآية، وأن يعيد قراءتها مرة ومرات، ولا يسأم من ذلك ولا يمل، حتى لو استمرت وقفته أمامها دقائق أو ساعات، وحتى لو أعادها عشرات المرات. . وكثير من علماء القرآن كانوا يطيلون الوقفة أمام الآية الواحدة، ويقومون بها ليلتهم كلها، ولا يقطعون تلاوة الآية وترديدها إلاَّ عند الفجر. .

٤ ــ النظرة التفصيلية في صياغة الآية: تركيبها وسياقها ومعناها، ونزولها وغريبها وإعرابها، وملاحظة معانيها ودلالاتها وظلالها. . بحيث لا يغادرها إلى غيرها، إلاَّ بعد أن يكون قد ألم بطرف من ذلك كله، ووقف على تفسيرها وفهمها. .

٥ ــ ملاحظة البعد الواقعي للآية، انطباقها على الواقع ومعالجتها له، بحيث يجعل من الآية منطلقاً له ليعالج حياته وواقعه، وميزاناً يزن به من حوله وما يحيط به، ونوراً يضيء له طريقه. . ولو أحسن إدراك هذا وتذوقه واستخراجه من الآية لوقف على كنز لا ينفد، وزاد عظيم من القرآن العظيم. .

٦ ــ العودة إلى فهم السلف ــ وبخاصة الصحابة الكرام ــ للآية، وتدبرهم لها وحياتهم بها، والوقوف على استقبالهم لها وتعاملهم معها، وملاحظة الأحوال والملابسات والظروف والحاجات التي عالجتها ولبتها، والتأمل والتدبر في ما روي لهم من عبارات في فهمها وتفسيرها. .

٧ ــ الاطلاع على آراء بعض المفسرين في الآية، واختيار التفاسير ذات القيمة العلمية، والأصالة والريادة والمنهجية والتوثيق. . وذلك حتى

يقـوِّم مـا لاحظـه فـي الآيـة، ومـا خـرج بـه مـن أحكـام ومعـان ودلالات وإيحـاءات، فيستبعـد مـا تعـارض مـع الأصـول العلميـة التـي قـررهـا علمـاء القرآن. .

وإذا كان لنا أن ننصح بتفاسير يتعامل معها ويأخذ عنها، فليطلع في المرحلة الأولى على كتاب موجز يعطيه الكثير من ما يطلبه في الآيات، ولن يكون هذا إلاَّ تفسير «في ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب. . ثم يطلع على تفسير من التفاسير القديمة التي تعني بمعاني الكلمات وصياغتها وإعرابها ونزولها وأحكامها ـ على تفاوت في ذلك حسب عصر وثقافة ومدرسة كل مفسر ـ ويستطيع أن يختار تفسير القرآن العظيم لابن كثير، أو الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، أو فتح القدير للشوكاني، أو رغائب القرآن للقمي النيسابوري. . أو غير ذلك.

ثلاثة أوراد يومية قرآنية:

ولعل كلامنا عن الخطوات المتدرجة للتعامل مع القرآن يطيل الفترة الزمنية التي يختم فيها القارىء القرآن، ويكلفه الكثير من الوقت والجهد والبحث والتدبر. . مع اعتقادنا أن هذا مطلوب لا بدَّ منه، وأنه هو الثمرة المرجوة من التلاوة، والمقصد الأساسي من القراءة. .

ولكننا من باب حرصنا على إفادة القارىء الكريم، وتقديم النصح له ـ نشير إلى ضرورة أن يكون لكل منا مع القرآن الكريم ثلاثة أوراد يومية، ووظائف لازمة، لا يتخلف عنها يوماً من الأيام، مهما كثرت شواغله وازدحمت الواجبات عليه.

* **الورد الأول**: ورد التلاوة، يقرأ في القرآن ـ بالآداب التي سبق وأشرنا إليها ـ ولا ينقص ورده اليومي هذا عن جزء من أجزاء القرآن،

بحيث يختمه في كل شهر قمري مرة. . ـ وهو الحد الأدنى الذي وضعه رسول الله عليه الصلاة والسلام لقارىء القرآن ـ ولن يأخذ هذا الورد من وقته أكثر من ساعة، بل قد ينقص إلى نصفها!.

* **الورد الثاني**: ورد الحفظ: بحيث يحرص على أن يحفظ كل يوم آية أو آيتين أو ثلاثاً، ويكرر حفظها ويحسنه يومياً، بحيث ما تمر عليه سنوات إلاّ وقد حفظ القرآن كاملاً بإتقان وضبط ملحوظيْن. .

* **الورد الثالث**: ورد التدبر: وهو المقصود بالخطوات المتدرجة السابقة، بحيث يطبق تلك الخطوات يومياً على آية أو آيتين أو ثلاث، ولا يزيد على ذلك، وأن يعيشها بحياته وكيانه كله، لن تمر عليه سنوات حتى يكون قد أحسن تدبر القرآن والتعامل معه وتفسيره وفهمه وفقهه. .

● ● ●

من مفاتيح التعامل مع القرآن

— ١ —

النظرة الكلية الشاملة للقرآن

القرآن كتاب شامل، ومنهاج حياة متكامل، وله مهمة واقعية مطردة، وطبيعة حركية حية، ورسالة حضارية عاملة، ووجود وتأثير مستمريْن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

وعلى القارىء الذي يريد أن يحسن التعامل مع القرآن، والتلقي عنه، والتأثر به، أن يحسن نظرته له أولاً، فإن الزاوية التي ينظر منها، والمنظار الذي ينظر من خلاله، والصورة التي يرسمها له، والمهمة التي يتوقعها له، إن لهذه الأمور كلها ارتباطاً مباشراً في كيفية التعامل مع القرآن..

بعض الناظرين إلى القرآن والمتعاملين معه والقارئين له ينظر له نظرات جزئية فرعية هامشية ثانوية.. فهو كتاب للشفاء والتعاويذ والرقى عند بعضهم، وهو كتاب شامل للعلوم والمعارف والثقافات عند آخرين، وهو كتاب تضمن أرقى أساليب البيان والبلاغة والفن عند فريق ثالث، وهو كتاب حوى من أخبار الماضين وقصص السابقين وأحوال العالمين، وهو كتاب للفقه والأحكام، واللغة والآداب، والفكر والخيال.. وهو كتاب مبارك للبركة والتيمن، وبعد هذا كله مجال للأجر والثواب، حيث لقارئه عشر حسنات بكل حرف من حروفه... إلخ.

ونحن لا ننكر وجود هذا كله في القرآن، وشموله له، وإشارته إليه، ولا يجوز لنا أن نفرغه من هذه الأمور.. لكن توفر هذه الأشياء فيه شيء، وأن نقصر نظرتنا له عليها فقط شيء آخر.. إننا لو فعلنا ذلك فسنفرغه من محتواه، ونعطله عن دوره ومهمته، ونقع في خطأ النظرات الجزئية الناقصة..

وبعض الباحثين في القرآن يقسمه إلى موضوعات، ويبحث عن مفرداته وعباراته، وإشاراته إلى كل موضوع منها، فهذا يبحث عن قصص القرآن، والآخر عن غيوبه، والثالث عن علومه، أو عن تشريعاته أو إشاراته إلى التاريخ أو علم النفس أو الإدارة أو الثقافة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو غير ذلك، ومنهم من يبحث في مصطلحاته ومفرداته كالصبر والصلاة والتقوى والخلافة والدعاء والحكم والجهاد.. وغير ذلك، ومنهم من يحاول تصنيف سوره وآياته وفهرستها وبيان ما تضمنته من موضوعات وعلوم ومعارف..

وهذه جهود طيبة خيرة، وأصحابها مثابون إن شاء الله ــ على حسب نياتهم فيها ــ لكنها لن تكون كاملة متكاملة شاملة، ولن تلم بالموضوع من كافة أطرافه أو تحيط به من كل جوانبه، حيث سيفوت أصحابها الكثير من اللمحات والإشارات واللفتات القرآنية للموضوع الذي يبحث أحدهم فيه.. وإلقاء نظرة فاحصة على نتاج هؤلاء في هذا المجال كافية للخروج بهذه الحقيقة.. ولا يفهم من كلامنا إلغاء العمل والبحث في هذه الموضوعات، وعدم جدوى أو صواب أو صحة ذلك، وإعدام تلك الكتب والأبحاث والدراسات!!! فهذا لا بدَّ منه، ولكن نحب أن تكون عند هؤلاء الباحثين وعند القارئين لنتاجهم ودراساتهم هذه الحقيقة، وهي أن القرآن الكريم عملاق ضخم، عملاق في طبيعته، وفي مهمته، وفي

رسالته، وفي إعجازه، وفي علومه وموضوعاته، وفي مناهجه ونظمه وتشريعاته، وفي كل ما حواه وأشار إليه.. عملاق ضخم تستحيل تجزئته، ويصعب تقسيمه.

النظرة الكلية الشاملة للقرآن هي المفتاح الأول للتعامل معه، وهي المنطلق الأساسي لفهمه وتدبره والتلقي عنه، وسيجد فيه هذا الناظر البصير ما يبحث عنه الآخرون من موضوعات وأمور جزئية جانبية، يجدها في أثناء التعامل معه، فتكون نظرات ثانوية مكملة لهذه النظرة، ومتممة لها، تزيدها مكاسب وعلوماً ومعارف..

وعلى القارىء للقرآن الذي يريد النظرة الكلية الشاملة له، أن ينظر في الآيات التي تعرض صفاته وسماته، والتي تشير إلى طبيعته ورسالته ومهمته، ثم يلتفت إلى نظرة الصحابة له ــ نظرة كلية شاملة ــ ليعرف كيف يتعامل معه ويعي عنه. ويستطيع أن ينطلق من حديثنا في ما سبق من هذا الكتاب، عندما عرضنا حديث القرآن عن القرآن، وكلاماً لرسول الله ﷺ عنه، وعبارات لصحابة وتابعين في وصفه.

● ● ●

ـ ٢ ـ

الالتفات إلى الأهداف الأساسية للقرآن

ومما يرتبط بنظرة القارىء للقرآن نظرة كلية شاملة، إلتفاته إلى الأهداف الأساسية للقرآن، فإن دقة وصوابية النظرة ـ كما بيناها في المفتاح الأول ـ تقود إلى حسن التعامل مع القرآن وفهمه وتدبره، وتطلع القارىء على أغراض القرآن الأساسية وأهدافه الرئيسية ومقاصده العامة.. وإذا ما التفت القارىء إلى هذه الأهداف فإنه سيسعى إلى تحقيقها فيه وفي من حوله..

ويخطىء كثير من المسلمين في تسجيل أغراض القرآن وأهدافه، حيث يسجلون له أغراضاً وأهدافاً ثانوية فرعية، أو لا يريدها القرآن ولا يهدف لها بحال..

نزل القرآن للأموات وليس للأحياء عند بعضهم، فلا يلتفتون إليه إلاَّ عندما يموت الميت، فتصدح أجهزة التسجيل في البيوت بالقرآن لعدة أيام، ويحضر القراء إلى البيوت والمقابر في مناسبات الموت وذكريات الموتى، وتوقف الإذاعة إرسالها العادي وتقصره على بث القرآن عند موت زعيم أو حاكم.. أما أن يتعامل الأحياء مع القرآن، ويبحثوا عن أغراضه وأهدافه ليحققوها فيهم وفي مجتمعاتهم، فهذا ما لم يفكر فيه هؤلاء.

ونزل القرآن عند بعضهم للبركة، حيث يحولونه إلى حجب وتمائم ورقى يضعونها على الأجساد أو البيوت أو السيارات، استحضاراً للبركة ودفعاً للضرر، ويفتتح هؤلاء كلماتهم ومؤتمراتهم ولقاءاتهم وجلساتهم واحتفالاتهم وإذاعاتهم بآيات من القرآن، من باب التيمن والتبرك، وتعطير الأجواء بذكره، أو من باب العرف والعادة واستغفال الشعب ودغدغة عاطفته الدينية، وإيهامه أنهم مع القرآن ومن جنوده وخاصته وأهله.. ولكنهم لا يريدون أن يفتحوا للقرآن نفوسهم ومشاعرهم وقلوبهم وكيانهم ليحييهم بما فيه من حياة، ولا يريدون أن يفتحوا له مؤسساتهم ومناهجهم ووزاراتهم وتشريعاتهم لتتحول إلى هدى ورحمة وعدل.. ولا يريدون أن يفتحوا له مجتمعاتهم وشعوبهم لتتحول إلى رسل خير ودعاة إصلاح، وسادة وأساتذة لبني الإنسان..

فما هي الأهداف الأساسية للقرآن، حتى نقف عليها في كل آياته وسوره، وحتى نَدَع لهذا القرآن الفرصة ليحققها فينا وفي مجتمعاتنا وفي واقعنا وحياتنا.

إن أهداف القرآن الأساسية لا تكاد تخرج عن أربعة:

١ ـ **الهداية إلى الله سبحانه وتعالى**، الهداية الرشيدة الأصيلة الهادفة القاصدة الواصلة، الهداية الشاملة للفرد بكل كيانه ومشاعره وأحاسيسه وجوانب حياته، والهداية الشاملة للأمة بكل أفرادها ومرافقها ومجالاتها وحياتها، والهداية الشاملة للإنسانية كلها إلى ربها سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، فالهداية في الآية عامة شاملة، والحياة القيمة التي يدعو إليها كذلك عامة شاملة.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، فالقرآن روح ولن يهدي إلاَّ ذو روح، والقرآن نور والله هو الذي يهدي بهذا الروح، ويهدي بهذا النور، وهو الذي كلف رسوله عليه الصلاة والسلام ليهدي بهذا القرآن إلى صراط الله المستقيم، وهو الذي كلف كل مؤمن مهتدٍ بهذا الهدى القرآني أن ينتقل إلى الآخرين ليهديهم إلى ما اهتدى هو إليه..

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ ــ ١٦].

٢ ــ إيجاد الشخصية الإسلامية المتكاملة المتوازنة: يكاد يوجدها من العدم، ويلتقطها من الواقع الجاهلي الآسن، الذي تضيع فيه النفوس وتفنى فيه العقول وتعطل فيه المدارك والحواس والمذاهب.. يلتقطها من هناك ثم يبدأ معها بسهولة ويسر وتأن وتدرج وملاحظة وتعهد.. يغرس الإيمان في هذه النفس، ويضيء لها جوانب حياتها بالنور الهادي، وينمي لها الخير والصلاح فيها، ويوظف لها ما وهبها الله من قدرات ومواهب وطاقات توظيفاً نافعاً خيراً، ليحقق الهدف والغاية، ويمدها بالوسائل والمناهج التي تعينها على رسالتها وتساعدها على الاستمرار في أدائها، ويضع في يديها من القواعد والأسس ما يمكنها من العطاء والإبداع..

وقد نجح القرآن نجاحاً بارزاً في تحقيق هذا الهدف في حياة الصحابة

الكرام، الذين كان الواحد منهم قرآنياً، يعيش بالقرآن وفيه وله، كما أنتج في العصور اللاحقة رجالاً قرآنيين في صفاتهم الإسلامية القرآنية. والنماذج المعاصرة من هؤلاء الرجال موجودة وافرة تتوزع رقعة شاسعة من عالمنا المعاصر.. وما زال القرآن جاهزاً وقادراً بإذن الله على العطاء والإخراج، ومستعداً لأداء هذا الهدف وتحقيق هذا الغرض، بشرط أن يلحظ القارىء فيه هذا، وأن يلتفت إليه، وأن يحسن التعامل معه والتلقي عنه، وأن يتجاوب معه في الإيجاد والتنشئة والتربية..

وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ..﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالناس بدون القرآن أموات في قلوبهم وحواسهم ومشاعرهم وحياتهم ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].

فالقرآن لا يدركه إلاّ الحي ولا يتفاعل معه إلاّ الحي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠].

٣ ـ **إيجاد المجتمع الإسلامي القرآني الأصيل**: وهو المجتمع المكون من الأفراد القرآنيين ـ الذين أنشأهم القرآن ـ بناء هذا المجتمع على منهج القرآن وأسسه ومبادئه وتوجيهاته، وإرساء أسس هذا المجتمع ومناهج حياته، وتزويده بكل ما يحتاجه من هذا كله.. وعندما ينبثق المجتمع من نصوص القرآن، ويعيش في ظلال القرآن، وينمو في جو القرآن، ويتقلب في أنوار القرآن، يكون مجتمعاً حياً حياة عزيزة كريمة حرة

سعيدة، وإلاّ فهو مجتمع ميت يجتر آلامه ومآسيه، ويتجرع ذله وجبنه وهوانه كل لحظة..

لقد أوجد القرآن مجتمع الصحابة الأول ـ المجتمع القرآني الرائد الفريد ـ وهو قادر على إيجاد المجتمعات وبنائها وتعاهدها إذا صدقت في الإقبال عليه والتفاعل معه والحياة به..

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالقرآن هو دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وهو دعوة إلى الحياة اللائقة ببني الإنسان، الحياة القرآنية في كافة مجالاتها وجوانبها ومظاهرها.. ومن رفض هذه الدعوة فقد رفض الحياة، وحكم على نفسه بالموت، الموت المعنوي الذي لا يشابه الموت المادي المحسوس. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥].

هذا وتستعمل الحياة ـ في الأسلوب القرآني ـ على أوجه ستة، ذكرها الإمام الراغب في مفرداته، وأورد الأدلة عليها والنماذج لها من آيات القرآن الكريم.

الأول: القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

الثاني: القوة الحساسة، وبه سمي الحيوان حيواناً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢].

الثالث: القوة العاملة العاقلة: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

الرابع: ارتفاع الغم، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

الخامس: الحياة الأخروية الأبدية، وذلك يتوصل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفجر: ٢٣ ـ ٢٤].

السادس: الحياة التي يوصف بها الباريء سبحانه، فهو حي معناه لا يصح عليه الموت. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر: ٦٥].

٤ ـ قيادة الأمة المسلمة في معركتها اللازمة مع الجاهلية من حولها، مع أعدائها المتربصين بها، الذين لا يرقبون فيها إلاًّ ولا ذمة، ولا يتركون في حربها أسلوباً ولا وسيلة.. فالقرآن يأخذ بيد هذه الأمة إلى ميدان المعركة، ويوقفها فيه، ويمدها بوسائل النصر وأسلحة القتال وأساليب الجهاد، ويعرفها على سبب شن الأعداء الحرب عليها، وعلى هدفهم من حربها، وعلى اجتماعهم على قتالها، وعلى استخدامهم كل ما يقدرون عليه لإفنائها، وعلى شخصياتهم ونفسياتهم، وعلى أساليبهم ومكائدهم، وعلى مكرهم ومراوغتهم، وعلى شبهاتهم ودعاياتهم، وعلى أسلحتهم وأدواتهم.. ويضع أيديها على عدة النصر وزاد الطريق وقوة المواجهة، بحيث يربطها بحبل ربها ويوثق صلتها بإسلامها.. فتخرج من معركتها المفروضة عليها ـ بقيادة القرآن وتوجيهاته وهدايته ـ منتصرة عزيزة حرة كريمة.. وهذا ما فعله القرآن مع الصحابة الكرام في جهادهم، وهذا ما فعله مع المسلمين عندما أقبلوا وسعوا إلى تحقيق هذا الهدف. وهو ما زال مستعداً وجاهزاً وقادراً بعون الله، فأين المجاهدون المقبلون

عليه؟ الحاملون له؟ المتحركون به؟ المواجهون للأعداء من خلاله وعلى هديه؟؟

قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهذا توجيه رباني للرسول عليه الصلاة والسلام، وللأمة من بعده، أن تجعل القرآن الكريم أداة ووسيلة تستعين بها في جهاد الكفار، وتعتبره السلاح الأول والأساسي والفعال في هذا الجهاد..

وأن مما يدمي القلب في هذا الزمان أن يُقبل أناس من المترئسين والمتنفذين والمتزعمين للأمة على أعداء الإسلام والقرآن، وأن يستعينوا بهم في جهاد القرآن ومقاومته، وأن يجاهدوا القرآن بهؤلاء، وأن يتحالفوا معهم في طمس هدايته وإطفاء نوره والقضاء عليه.. ولكن هؤلاء جميعاً نسوا أنهم يحاربون الله سبحانه، ومصير كل من حارب الله معروف في التاريخ، وصدق الله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٨ ـ ٩].

• • •

ـ ٣ ـ

ملاحظة المهمة العملية الحركية للقرآن

على القارىء البصير للقرآن أن يلحظ ويلاحظ المهمة العملية الحركية للقرآن، ويقوده إلى هذه الملاحظة المفتاحان السابقان «النظرة الكلية الشاملة» و «الالتفات إلى الأغراض الأساسية» فعندما يحسن استعمال ذينك المفتاحين فسيتعرف على مهمة هذا القرآن ورسالته، وهي عملية حركية واقعية . .

إن أوضح سمة من سمات القرآن هي «الواقعيه الحركية» وهي مفتاح التعامل مع هذا القرآن وإدراك مراميه وأغراضه، وفقهه وفهمه وتدبره ــ كما يقول الشهيد سيد قطب في ما أوردناه له ــ وهذه الواقعية الحركية هي التي تحدد «المهمة العملية الحركية» للقرآن الكريم، وتوضح رسالته الجدية الواقعية في الحياة . .

لقد وصف الله كتابه وصفاً عجيباً، يدل دلالة واضحة على مهمته العملية، الحركية، حيث أخبرنا عن كتابه بأنه حكيم! فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١ ــ ٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٤]، والحكمة من صفات العقلاء، ولهذا القرآن صفات العقلاء، إنه علي حكيم، يربي بحكمة، ويتصرف بحكمة، ويقود الأمة بحكمة، ويؤدي مهمته ورسالته بحكمة . .

بهذه الحكمة القرآنية عمل القرآن ما عمل في حياة الصحابة، وبهذه المهمة العملية الحركية أخرج الصحابة إخراجاً من العدم إلى القيادة، ومن الموت إلى الحياة، وبهذه السمة «الواقعية الحركية» كان القرآن حاضراً هناك وعاملاً حياً، وموجهاً رائداً.. أدرك الصحابة الكرام ـ الجيل القرآني الفريد ـ هذه السمة، والتفتوا إلى هذه الحكمة، ولاحظوا هذه المهمة، فصنعوا الأعاجيب في حياة البشرية..

ولا بد أن نلاحظ نحن هذه المهمة القرآنية في حياتنا وواقعنا، وأن نتفاعل مع الحكمة القرآنية، وأن نتدبر الواقعية الحركية فيه، حتى نحسن الأخذ عنه والحركة به.. وحتى ننجح بهذا لا بدَّ من ردم الحاجز السميك بين قلوبنا وبين القرآن، وإزالة الفجوة العميقة بيننا وبين القرآن، وتطهير القلوب مما علق بها من غشاوات وأكنة وتلبيسات وشهوات، حالت بينها وبين أنوار القرآن.. لا بدَّ أن نخطو نحن نحو القرآن، وأن ندخل في عالمه الرحيب، ندخل فيه بكامل كياننا الإنساني، ونتلقى عنه بكافة أجهزة التلقي والاستجابة فينا، ونقف منه على مهمته العملية الحركية الواقعية، ونلحظها في كل سوره وآياته وعندها سنرى القرآن حياً فاعلاً، وحكيماً موجهاً، وقائداً مربياً، وسيخرجنا بإذن الله إخراجاً مباركاً، وينشئنا تنشئة رائدة، ويوصلنا إلى مركز القيادة والريادة والأستاذية للإنسانية.

كل آيات القرآن توحي بمهمته العملية الحركية، وتشير إلى واقعيته الحركية الجدية، وتنبض بمظاهر الحياة والحيوية فيه.. من ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالأمة الإسلامية أخرجت للناس إخراجاً من العدم، انبثقت من بين

نصوص القرآن، وولدت ميلاداً جديداً في محضن القرآن، ونمت وترعرعت وعاشت في ظلال القرآن.. وبهذا كانت خير أمة، ومَنْ هي الأمة التي تقاربها في هذه الخيرية فضلاً عن أن تساويها أو تتفوق عليها؟؟ وهل المسلمون اليوم يتمتعون بهذه الخيرية؟ ويؤدون هذه الوظيفة، ويسبقون العالم إلى الرِّيادة والقيادة؟ الجواب معروف، والسر هو في نظرتها للقرآن، وتعاملها معه، وصلتها به..

كم سيربح القارىء للقرآن ويستفيد، وما هي الحصيلة الوافرة الثرية من المعلومات والتوجيهات والحقائق والإيحاءات التي سيخرج بها عندما يقرأ نصوصاً للقرآن، وهو يستخدم هذا المفتاح «المهمة العملية الحركية للقرآن»، وهو يدرك هذه السمة «الواقعية الحركية للقرآن»! ندعوه إلى أن يقرأ هذه الآيات ــ على سبيل المثال ــ بهذا الاعتبار:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ــ ١٣٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى

حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ
مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٧].

• • •

ـ ٤ ـ

المحافظة على جو النص القرآني

قارىء القرآن قد يشغل نفسه بشواغل أثناء التلاوة، تخايل له فتحجب عنه أنوار القرآن، وقد يسرح في ذهنه، ويجول خياله في الآفاق.. وقد سبق أن تحدثنا عن هذا في آداب تلاوة القرآن.

ولكن الذي نبينه هنا أن يبقى القارىء في «جو» النص القرآني، وأن يحضر معه كل أجهزة وأدوات التلقي والاستجابة والتأثر والانفعال في كيانه الإنساني، لتتفاعل مع القرآن وتأخذ عنه.. على القارىء أن «يحافظ» على الجو القرآني المبارك، وأن يحرص على إبقائه وإثرائه وزيادته كلما أقبل على التلاوة، وأن يزداد من كل هذا كلما تكررت التلاوة وعاود النظر في كتاب الله..

وهو في أثناء قراءته للآيات قد تستوقفه مجموعة منها، وتدعوه إلى أن يتوسع في تدبرها واستخراج ما فيها، ولا مانع أن يطيل هذه الوقفة، وأن يلبي تلك الدعوة!! لكن بشرط أن لا يخرج عن جو النص القرآني الكريم، وأن يبقى خواطره ومشاعره، وأفكاره وتصوراته، ونظراته واهتماماته، يبقيها مع الآيات وظلالها وإيحاءها.. فإذا ما سوغت له نفسه الخروج من هذا إلى اهتمامات أخرى فلا يستجب لها، وإذا ما زينت له أفكاره التعريج على مباحث وقضايا وجوانب واستطرادات لا ارتباط بينها

وبين الآيات، ولا يتوقف فهم الآيات وتدبرها عليها، فلا يَقْبل ذلك ولا يُقْبل عليه، وليقصر نفسه وفكره على العودة إلى جو النص القرآني، وليكن يقظاً ومنتبهاً لهذا أثناء التلاوة..

إن البقاء في جو النص القرآني، والمحافظة عليه، هو مفتاح لا بدَّ منه لفتح كنوز القرآن، وحسن التعامل معه والتلقي عنه والاستجابة له.. ولا أدري كيف يجيز قارىء أو كاتب أو ناظر في القرآن لنفسه وفكره أن يخرج من صحبة القرآن الحبيب، ويغادر ظلاله وأنواره وأفياءه، وجوه وعطره وحكمته، إلى تحقيقات واستطرادات وشواغل ومشكلات أتى بها البشر وأشغلوا أنفسهم ــ والناس معهم ــ بها..

إن النص القرآني يطلق شحنات كامنة من معانيه، ويفيض فيوضات دافقة من أنواره، ولكنها لا يقتنصها ويدركها ويتعرض لها إلاَّ من كان يقظاً لها، متفاعلاً معها، حاضراً بكل كيانه لحظتها.

ليحاول القارىء ــ من باب التمثيل لهذا المفتاح ــ أن يتلو بكل كيانه هذه النصوص، وأن يعيش في جوها وأن يحافظ على ذلك، ثم لينظر الرصيد الضخم الذي أضافه إلى حياته في ظلال القرآن، والكنز الثمين الذي خرج به من هذه القاعدة، والثمار اليانعة التي جناها من هذه الصحبة الواعية..

ليعش طويلاً مع قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣ ــ ١٢٤]، والنقير هو النقرة في ظهر نواة التمر، وهذه هي أخوف آية في كتاب الله!!

وليعش طويلاً مع قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام: ٧١].

ومع قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١].

ومع قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر: ٣٦ ــ ٣٧].

• • •

ـ ٥ ـ

استبعاد المطولات التي قد تحجب نور القرآن

وهذا متمم للسابق ومكمل له، فإن من لوازم المحافظة على جو النص القرآني، أن لا يلتفت إلى المطولات التي قد تخرجه من هذا الجو، وتحجب عنه أنوار القرآن وموحياته وتوجيهاته.. إن هذه المباحث الكثيرة في كتب التفسير وضعها السادة المفسرون من أجل «تثقيف» القارىء للتفسير، وتزويده بأكبر قدر من هذه الثقافة، هم فعلوا هذا بمقصد نبيل ونية حسنة، وهم مأجورون عند الله إن شاء الله، ولقد استفاد القراء من كثير منها وأضافوا إضافات إلى رصيدهم الثقافي التفسيري.. ولا مانع أن يقبل على هذه المطولات والمباحث والمشكلات والقضايا بعض المتخصصين في التفسير، بين الحين والآخر في فترات متباعدة.. لكن أن يعود إليها دارسو التفسير جميعاً، وقارئو القرآن، وأن تكون هذه المطولات المختلفة هي الهدف من الدراسة والقراءة، والغرض من النظر في القرآن، والثمرة التي تجنى من الحياة معه، فهذا حاجز يحجزهم عن القرآن، وحاجب يحجب عنهم نوره وهداه..

لن يضير قارىء القرآن ودارسه شيئاً لو لم يطلع على هذه المطولات أصلاً، ولم يفته شيء من هدى القرآن وكنوزه لو لم يعرف عنها شيئاً، ولن ينقص علمه بالقرآن لو لم يتعامل معها مطلقاً.

إننا نكاد نطالب قارىء القرآن أولاً أن يقتصر عليه، ونطلب منه أن يستبعد المباحث والاستطرادات التي ذهب إليها دارسو القرآن ومفسروه من السابقين.

وهذه المطولات والمباحث مختلفة: منها النحوية المتعلقة باختلافات النحويين في وجوه إعراب الكلمات القرآنية، ونقاشاتهم وترجيحاتهم.. ومنها البلاغية المتعلقة بالكلمة القرآنية ومعانيها واشتقاقاتها والخلافات والترجيحات فيها.. ومنها الفقهية المتعلقة باختلافات الفقهاء في الأحكام الفقهية المستنبطة من النص وردودهم وأدلتهم وتوجيهاتهم.. ومنها الأثرية المتعلقة بنزول الآيات وأسبابها وزمانها ومكانها والأقوال المأثورة المتعارضة عن السابقين في تفسيرها.. ومنها القصصية المتعلقة بقصص القرآن وحديثه عن السابقين، والخلافات في تحديد القصة أو زمانها أو أبطالها وتفصيلاتها وأحداثها ومجرياتها.. إلى غير ذلك من الأساطير والإسرائيليات والخرافات.

إذا قرأ قارىء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣١]، فليبق في جو هذه الآيات التي تعرض قصة آدم، ليتلقى إيحاءاتها.. ولا يخرج إلى مباحث مطولة واستطرادات مرفوضة قام بها بعض السابقين، تشغل هذا القارىء عن معايشة النصوص، وتحجب عنه أنواره: لا يهتم بالاختلاف في اشتقاق كلمة «الملائكة» والنقاش بين الآراء المختلفة فيه، ولا يذهب إلى تيه التأويلات الافتراضية حول كيفية قول الله لملائكته، وجوابهم عليه، ومعرفتهم أو توقعهم الإفساد وسفك الدماء من نسل هذا الخليفة وأدلتهم

على ذلك، وتفاصيل ما جرى بعد ذلك بين آدم وإبليس، ومكان الجنة التي جرت فيها هذه القصة.. ولا يستطرد إلى الحديث عن العلم وشروطه وألوانه وفضله.. وغير ذلك.

إذا قرأ القارىء قصة ابنيْ آدم في سورة المائدة [٢٧ ـ ٣٢] فلا يقع تحت تأثير الاستطراد والتفصيل والخبط بلا دليل، الذي أتى به سابقون من المفسرين، في افتراض تفصيلات للقصة لا تقوم على أصل، ولم يرد بها نص موثوق.

إذا قرأ الآيات التي تعرض أحكام الصيام في البقرة [١٨٣ ـ ١٨٧] أو تلك التي تقرر أحكام القتل وأنواعه وكفارته في النساء [٩٢ ـ ٩٣] أو التي تتحدث عن الذبائح والتسمية عليها في الأنعام [١١٨ ـ ١٢١] أو التي تتحدث عن حد الزنا والقذف واللعان في سورة النور [١ ـ ١٠]، إذا قرأ هذه الآيات وغيرها من آيات الأحكام، فليبق عند جو النص القرآني لا يغادره إلى استطرادات الفقهاء حولها. ولا يحول نظره في الآيات وتدبره فيها إلى موسوعة فقهية مذهبية، وإلى معركة جدلية بين الآراء والأقوال المتعارضة.. وليترك هذه للمتخصصين من الفقهاء في الدراسات الفقهية، وليحقق هو في نفسه ومَنْ حوله أغراض القرآن، التي ليس من بينها قطعاً الاستطراد والتوسع والتفصيل والتطويل.

• • •

— ٦ —

تنزيه القرآن عن الإسرائيليات
وعدم تبيين المبهمات

حديث القرآن الكريم عن السابقين وإيراده لقصصهم وأخبارهم، لم يكن يتبع المنهج التفصيلي التحليلي، فلم يتوسع في الحديث عن زمان أو مكان أو أبطال أو تفصيلات القصة، ولم يتحدث عن كل حادثة أو جزئية أو فرعية فيها، ولم يستطرد إلى تكميلات وتحليلات وتفصيلات في أحداثها وحركات أبطالها وخلفيات مشاهدها.. لم يفعل القرآن شيئاً من هذا لأنه لم يستهدف من قصصه هذه التفصيلات والتحليلات، إنما هدف إلى عرض الحقائق وتقريرالقيم والتصورات، واستخلاص العبر والدروس، والتوجيه إلى الدلالات، والانتفاع بما فيها من توجيهات.. وهذا متحقق في المقدار الذي عرضه القرآن، بالكيفية التي عرضه بها..

وكان الأَوْلى بالناظرين في القرآن والدارسين له ـ الذين اتجهوا إلى الإسرائيليات والأساطير ـ أن يقفوا عند العرض القرآني لقصص السابقين وأن يستفيدوا من منهجه وطريقته في النظر فيها وتحليلها، وأن يُقبلوا على استخلاص التوجيهات والدروس فيها، وأن لا يجاوزوا القرآن إلى مصادر بشرية عاجزة جاهلة، يطلبون منها تفصيل ما أجمل القرآن، أو تبيين ما أُبهم فيه، أو الحديث عما أغفل!!.

وليتهم طلبوا هذا من مصادر موثوقة قد تعطيهم علماً ويقيناً في هذا، ولكنهم طلبوا هذا من مصادر محرفة كاذبة، واستفتوا أناساً كافرين ظالمين محرفين لدينهم.. إتجهوا إلى بني إسرائيل يسألونهم عن ذلك، وأقبلوا على الإسرائيليات، يزيدون منها علمهم وثقافتهم، ويملأون منها تفاسيرهم وأبحاثهم ودراساتهم، ويحددون بهذا الهراء والادعاء نصوص القرآن، ويفسرون بهذه الأساطير آيات القرآن، ويبينون بهذه الخرافات مبهمات القرآن، ويتقولون بهذا على السابقين ما لم يقولوه، وينسبون لهم ما لم يفعلوه..

ونسي هؤلاء توجيهات القرآن في عدم البحث فيما لا دليل عليه، كأحداث الماضين التي هي من أنباء الغيب، وأن لا يُسأل فيها مَنْ لا علم عنده، وأن لا يقفو المسلم ما ليس له به علم، ولا يتبع ما لا دليل عليه، لأنه يسأل عنه يوم القيامة ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، ونسوا نهي القرآن المباشر للمسلمين أن يأخذوا في قصص السابقين عن أهل الكتاب، وأن لا يستفتوهم في شيء منها، وذلك قوله ـ أثناء الحديث عن عدد أصحاب الكهف ـ ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: ٢٢]، ونسوا نفي القرآن الصريح العلم عن البشر في كثير من أحداث التاريخ الماضية، وتقريره عن حلقات في ذلك التاريخ لا يعلمها أحد من البشر وإنما يعلمها الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [إبراهيم: ٩]، ونسوا دعوة القرآن إلى التثبت في أنباء الفاسقين، فكيف في أنباء الكافرين الكاذبين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦].

وعلى هدي هذا المفتاح في التعامل مع القرآن، وبخاصة حديثه عن قصص السابقين، فإننا ندعو قارىء القرآن أن يتجاوز كل الإسرائيليات والخرافات والأساطير التي وردت عنها، والتي ملأ بها مفسرون ودارسون كتاباتهم، فحجبوا بذلك كثيراً من أنوار القرآن في أكوام من ذلك الركام.

لا بدَّ للقارىء أن ينزه القرآن عن الإسرائيليات كلها، وأن لا يجاوز نصوص القرآن وما صح من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في ذلك، وأن لا يقبل أي قول آخر بعد ذلك مهما كان قائله، إذا لم يبين دليله الذي استدل به ومصدره الذي أخذ عنه..

إذا فعل القارىء ذلك فكم سَيُسْقط ويلغي صفحات من تفاسير سابقة؟ ويلغي كتباً وحكايات أسطورية؟ ويكون في منأى ومأمن عن أن يخبط في تيه الخرافات، لأنه مهتدٍ بأنوار القرآن..

لا أجد ما يدعوني إلى التمثيل بنماذج للإسرائيليات في قصص القرآن، لأنها ما تركت منها واحدة، وأي قارىء في التفاسير السابقة سيقف على ركام ثقيل منها. سيجد هذا إذا قرأ عن بقرة بني إسرائيل في البقرة، وعن ولادة عيسى عليه السلام في آل عمران، وعن رفعه في سورة النساء، وعن مائدة النصارى في المائدة، وعن إبراهيم عليه السلام مع قومه في الأنعام، وعن موسى عليه السلام مع فرعون ومع بني إسرائيل في الأعراف.. وغير ذلك.

ومما هو مرتبط بهذه القاعدة موقف القارىء من مبهمات القرآن، وهي ما أبهمه القرآن من أسماء الأشخاص والأماكن في قصص السابقين. وهي التي يستحيل علينا أن نبينها، وأن نحدد تلك الأسماء لأننا لم نشهدها، ولأن الروايات عن أهل الكتاب فيها مطعون فيها، ومردودة علمياً، لتطرق التحريف والكذب إليها وغلبته عليها.

موقف القارىء منها أن ينظر في القرآن، فإذا وجد ما أُبهم في موضع مبيناً في موطن آخر أخذه، فإن لم يجده مبيناً في القرآن، توجه إلى ما صح من حديث رسول الله عليه السلام، فإذا بُين هناك أخذه.. ولا يجوز أن يبحث في غير هذين المصدرين اليقينيين، فليتركه بعد ذلك على إبهامه، وليسعه ما وسع رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه في موقفهم منه.. فإن لم يفعل ذلك قال على الله بدون علم، واتبع من ليس عنده علم. وأشغل نفسه في ما لا خير فيه، وخرج عن جو النص القرآني، وأقبل على موانع وحجب تحجب عنه نور القرآن.. وخالف في ذلك كله هدي رسول الله عليه السلام وأصحابه الكرام في الصلة بالقرآن، واستبعد هذه المفاتيح الضرورية للتعامل مع القرآن..

من المبهمات التي لا يجوز أن يبحث عن بيانها: الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام، وخشب سفينة نوح عليه السلام، وأسماء وأصناف طيور إبراهيم عليه السلام، ونوع عصا موسى عليه السلام، وأسماء أهل الكهف وكلبهم، والثمن الذي بيع به يوسف عليه السلام، واسم الحاكم الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، واسم الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، واسم الذي عنده علم من الكتاب عند سليمان عليه السلام.. وغير ذلك.

• • •

ـ ٧ ـ

دخول عالم القرآن دون مقررات سابقة

قد يجمع القارىء مقرراته وثقافاته من مصادر عديدة، وقد تكون هذه المصادر متعارضة أو متداخلة أو متناقضة، فينعكس هذا على مقرراته التي أخذها وثقافته التي حصلها، فيكون مشوشاً في فكره، متناقضاً في تصوراته، متعارضاً في نظراته.. وهذا حال كثير من المثقفين في عصرنا، الذين استقوا علومهم من الينابيع الملوثة، وحصلوا ثقافاتهم من المصادر الغربية الدخيلة..

والقرآن الكريم وحده هو النبع الصافي الثر الأصيل، الذي يُخرج الإنسان المسلم المتوازن، والذي يزوده بالتصورات والحقائق والقيم والثقافات الصحيحة الصادقة اليقينية.. ولكن القرآن لن يفعل هذا إلاَّ بشرط، وهو أن يدخل القارىء عالم القرآن بدون مقررات سابقة كان قد حصلها من هنا وهناك من نتاج البشر.. هو أن يلقي على عتبة القرآن بكل هذا الركام وأن يدخله مجرداً منه، وأن يتعامل معه من البدايات، وأن يتلقى عنه المعاني والإيحاءات والتصورات..

إن هذا ما فعله الصحابة الكرام في تعاملهم مع القرآن ــ فكانوا جيلاً قرآنياً فريداً ــ لقد كان الرجل منهم يلقي على عتبة القرآن بكل ماضيه وتصوراته وموروثاته.. ويدخل عالمه الرحيب الطاهر صفر اليدين، ويبني

نفسه بناءً متوازناً بطيئاً، ويحصل منه مقرراته وثقافاته ومناهج حياته، فيتخرج من مدرسته رجلاً إيمانياً متوازياً سوياً. .

القرآن الكريم يعطي القارىء الكثير من المعاني والحقائق، ويزوده بالكثير من المعارف والثقافات، ويمنحه الكثير من الكنوز والتوجيهات، ويقدم له الكثير من المقررات والتصورات. . ويطلق له من أنواره ما ينير له حياته، وينشر عليه من ظلاله ما يضفي عليه الرحمة والأنس والطمأنينة. . وهذا كله بشرط أن لا يتعامل معه بمقررات سابقة، غريبة على التوجيه القرآني، ودخيلة على التصور الإسلامي. .

وقد أخطأ أناس في صلتهم بالقرآن، ولم يحسنوا دخول عالمه الرحيب، فمنهم من أحضر معه ركاماً ثقيلاً من المعارف والثقافات والأخلاق والعادات والأعراف والسلوكيات ـ وهي متناقضة مع توجيهات القرآن ـ فحجبت هذه عنه أنوار القرآن. . ومنهم من دخل عالم القرآن بمقرر فكري مسبق، بقي يخايل له وهو ينظر في القرآن، فحجب عنه الرؤية وأوقعه في الغبش والتخليط، ومنهم من أقبل على القرآن بنية مسبقة، وخلفية سابقة، وهدف يبغي تحقيقه، فصار يعتسف الطريق، ويتكلف الأدلة، ويلوي أعناق النصوص ليا، ويقسرها قسراً، ويستنطقها استنطاقاً، لتشهد له. .

وهؤلاء جميعاً خرجوا بنتائج خاطئة، ومقررات مرفوضة، نسبوها إلى القرآن الكريم، وما هي إلاَّ نتاج غبش وتيه، وثمرة حجاب عن أنوار القرآن وحقائقه.

ومن الأمثلة السريعة لهؤلاء الذين دخلوا القرآن بمقررات سابقة فضلُّوا، وخرجوا من ذلك بنتائج خاطئة فأضلوا. .

ذلك الذي أراد أن يستدل من القرآن على أن الأديان السماوية كلها وحدة واحدة، وأن أتباعها كلهم في الجنة، وأن اليهود والنصارى ـ بعد نزول القرآن ـ هم مقبولون عند الله، وتوكأ في كل هذا على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٩].

وذلك الذي استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] على أن القرآن حوى جميع العلوم والمعارف.

وذلك الذي يركن إلى الحكام الظالمين المحاربين لله ورسوله ولدينه، فيبحث لهم عن آية توجب طاعتهم وتنفيذ أحكامهم، فيعتمد على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وذلك الشيخ الذي باع دينه بدين غيره من الحكام الظالمين، فخسر الأمرين معاً، وصار يبرر لهم رذائلهم وضلالهم، ويعطيه بُعْداً إسلامياً، ويضفي عليه ظلاً قرآنياً، ويبحث عن آيات القرآن لتشهد له..

إذا طلبوا فتوى في الفائدة الحرام، والربا المقيت، وجدها في آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وإذا والوا النصارى وأحبوهم وقربوهم، برر لهم ذلك بآية: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].

وإذا ذلوا أمام الأعداء وجبنوا عن قتالهم، وفاوضوهم على البلاد، وصالحوهم على الأوطان، وتنازلوا عن البلدان، أجاز لهم ذلك بآية: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وإذا بطش هؤلاء بجنود الله، وحاربوا أولياء الله، وآذوا أحباب الله واتهموهم بكل شناعة، ونسبوا لهم كل عيب، ولفقوا لهم كل تهمة، ومدوا إليهم أيديهم وألسنتهم بكل صنوف الأذى والعدوان والاضطهاد والتعذيب.

اعتبر ذلك التاجر بدينه وقرآنه رجال الله بغاة محاربين، وطبق عليهم حد الحرابة، وذبحهم بالقرآن: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٣٣].

● ● ●

- ٨ -

الثقة المطلقة بالنص القرآني وإخضاع الواقع المخالف له

القرآن كلام الله، ولا بد أن ينظر له على أنه كلام الله، ويتم التعامل معه على أنه كلام الله، ويوثق به على أنه كلام الله، ويسلم به ويصدق به على أنه كلام الله، وهو الحق المطلق والصدق المطلق والخير المطلق والهدى المطلق.. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾ [النساء: ١٢٢].

وموقف القارىء من القرآن هو التسليم التام به، والثقة بنصوصه، والتصديق الجازم بمعانيه وحقائقه ودلالاته.. فما قاله فهو الحق، وما قرره فهو الصدق، وما أشار له ووجه إليه فهو الخير، وما أمر به فهو الهدى والصواب، وما نهى عنه فهو الشر والفساد.. فهذا القرآن من قال به صدق ومن حكم به عدل، ومن التزم به استقام، ومن صدَّق به اطمأن، ومن وثق به اهتدى، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وكيف يجيز مسلم لنفسه أن «يتعالم» على الله في كتابه، وأن يجعل عقله البشري القاصر فوق كلامه أو نداً له، وأن يعمل في نصوص القرآن بالتحريف أو التعطيل أو التأويل، أو التقزيم أو التفريغ أو التلبيس.. وأن

يتشكك في معانيها ومقرراتها وحقائقها، أو يتفلسف على دلالاتها وإيحاءاتها، أو «يتخير» ما شاء من أحكامها ومبادئها..

على القارىء البصير أن تكون نظرته لنصوص القرآن، وتعامله معها واقتناعه بها وتسليمه لها محكوماً بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. وبقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].. فلا يكون «مزاجياً» في تعامله مع القرآن وثقته بنصوصه، فيفعل فعل اليهود في التوراة، ذلك الفعل الذي يقوم على «المزاجية» والهوى، والذي ذمه الله بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]. وبقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]. إنه هو الصلة المزاجية اليهودية التي «قرطست» التوراة قراطيس، فمزقتها وقزَّمتها وطمست نورها كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

ولكننا كم نرى من مسلمي هذا الزمان من هم مزاجيون في نظرتهم إلى نصوص القرآن! وثقتهم بها! وتسليمهم لها! كم نرى من هؤلاء من يحكم في هذه النظرة الهوى والشهوة والمصلحة والرغبة.. كم نرى من هؤلاء من «يقرطس» أحكام القرآن ونظمه وتشريعاته «قرطسة» مرذولة مقيتة، تشابه قرطسة اليهود لتوراتهم، وتكاد تخرجه من دين الله..

إذا أخبرنا عن وجود الملائكة وصفاتهم فهو صدق يجب الإيمان به

والثقة فيه. وقل مثل هذا في إخباره عن إبليس والشياطين وعن الجن، وعن الأنبياء ومعجزاتهم، وعن الأعداء وهلاكهم، وعن تسبيح كل من في الكون لله وسجودهم له، وعن الجنة ونعيمها، وعن النار وعذابها.. وغير ذلك..

وإذا تضمنت نصوص القرآن حكماً أو تشريعاً، فلا بد من التصديق به والتسليم له، فالخمر ولحم الخنزير والربا والنظرة المحرمة والزنا، والكذب والغدر، وموالاة الأعداء ونصرتهم، ومصالحتهم والجبن والذل أمامهم، وإيذاء أولياء الله واضطهادهم. كل هذه محرمات في دين الله، لما فيها من إفساد وتخريب وفوضى ودمار..

وإذا قرر القرآن أمراً، أو تضمن من الله حكماً أو وعداً، أو عرض سنَّة أو حقيقة، ثم رأى القارىء أن الواقع الذي يعيشه، والأمر الذي يشاهده يتعارض مع ما قرره القرآن، ويتناقض معه، ويتخلف عنه.. فلا تضعف ثقته المطلقة بالنص القرآني، ولا يتزعزع تصديقه به وتسليمه له، ولا يقبل على هذا النص بالتحريف والتعطيل والتأويل، فلا يجعل ما يراه من مخالفة هو الأصل، وما يوحي به القرآن هو التابع له، الذي يجب أن يخضع له، وأن يؤَوّل ليوافقه..

إن النص القرآني هو الأساس والقاعدة والأصل، وإن الواقع هو التابع له، فإذا ما تعارضا في ظاهر الأمر، فلا بد أن في الأمر شيئاً، ولا بد أن الشروط والمواصفات التي قررها القرآن لم تتحقق، والأسباب التي أشار إليها لم توجد.. فلو وجدت الأسباب كاملة وتحققت الشروط وافية، فلا بد أن نرى الواقع متطابقاً مع النص.. فلا بد إذن من إخضاع الواقع المخالف لتقريرات القرآن وحقائقه..

قـولـه تعـالـى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النسـاء: ١٤١]. هـو الأصـل والـواقـع لـه تبـع. وقـولـه تعـالـى: ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [الأنعام: ٦]. سنة لا تتخلف والبصير هو الذي يراها قادمة.. وقوله تعالى مهدداً آكلي الربا: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] يعلن الحرب عليهم، والمؤمن هو الذي يراها الآن حرباً أعلنها الله على العالم أجمع لأكله الربا، كما قال في الآية الأخرى، ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقوله تعالى عن اليهود: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٢] حكم قاطع دائم يتضمن الاستثناء في الحبال الممدودة إليهم في هذه الأيام، حبل الله بالإمهال، وحبال أمريكا بالمساعدات المالية، وحبال روسيا بالسيل البشري، وحبال عملائهم بالتحالف والتعاهد، وحبال الأمة بالجبن والذل وترك الجهاد..

وقوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧] تعليل لسر انتصار المسلمين السابقين، وتعليل لسر هزائم المسلمين المعاصرين، وهو يقرر قاعدة عامة وسنة ربانية ثابتة تتضمن شرطاً بشرط، وهو المتمثل في فعل الشرط وجوابه..

• • •

ــ ٩ ــ

معايشة إيحاءات النص وظلاله ولطائفه

لنصوص القرآن إيحاءات خاصة، ودلالات صائبة، وظلال لطيفة وارفة، ولطائف غالية نافعة، وتقوم هذه النصوص بإطلاق هذه الايحاءات وإلقاء هذه الظلال، والدعوة إلى تلك اللطائف، ولكن لا يفهم عليها كل من نظر في القرآن أو قرأ فيه، لأن الجميع لا يملكون المؤهلات لإدراكها، والمفاتيح للتعامل معها. إن هذا يحتاج إلى قارىء حي بصير، يتبوأ الإيمان أولاً، ثم يتفاعل مع القرآن بكل كيانه، ثم يفهم عنه ما يوحي به من إيحاءات، ويتفيأ ما يلقيه من ظلال، ويعيش حياة هانئة مباركة في هذه «الظلال» القرآنية الوارفة، حياة ترفع عمره وتباركه وتزكيه.

بماذا توحي للقارىء البصير آخر آية نزلت في كتاب الله ــ كما رجح جمهور العلماء ــ وهي قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. إنها تشير إلى عدة مجالات، وتوحي بعدة إيحاءات، ويمكن أن تستنبط منها عدة دلالات:

إن موضوعها عقيدي، حيث تربط المؤمنين بالله وتطالبهم بتقواه، وتوقظ فيهم مراقبته، والنظر في يوم القيامة وخشيته والخوف منه، وتقرر قاعدة الجزاء في ذلك اليوم وكونه على ما كسب الإنسان في الدنيا، وتنفي الظلم عن الله، وهذه كلها من موضوعات العقيدة وقضاياها وجزئياتها..

ومما يلفت النظر هنا أن تفتتح أول آية في القرآن ـ حسب النزول ـ بالعقيدة، وأن تختتم آخر آية منه بالعقيدة، وأن يكون بين الآيتين فترة زمنية مدتها ثلاثة وعشرون عاماً، نزلت فيها آيات في موضوعات القرآن وتوجيهاته ومبادئه وتشريعاته. . ولهذا دلالات ـ تربوية وتصورية ـ على أهمية العقيدة أولاً، وعلى ضرورة الإستمرار في التذكير بها والتركيز عليها، وعلى ربط كافة المناهج والتشريعات بها لضمان الإلتزام بها وأدائها، وعلى إقبال المربين والموجهين عليها لتكون مادة التربية وأساس التوجيه، وعلى أهمية التذكير باليوم الآخر، وربط القلوب به لاستقامة الحياة. . وغير ذلك من إيحاءات ودلالات. .

ولو وقف القارىء البصير أمام قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١] وحاول استخراج دلالاته وإيحاءاته فإنه سيقف على رصيد ضخم منها، ومن أهمها:

أن الحمد والشكر والثناء لايكون في الحقيقة إلا لله، لأنه هو مصدر الخيرات والنعم، وحمد الناس لكونهم وسائط لها وأسباباً، وهو في الحقيقة حمد لله الذي أوجد في قلوب المحسنين والمنعمين الرأفة والرحمة على بني البشر.

ومنها أن الله هو الخالق لكل ما في السماوات والأرض، وهذا رد على الملحدين الذين ينسبون الخلق إلى الطبيعة، وأن الله هو الجاعل للظلمات والنور، وهذا رد على الثنوية والمجوس الذي يجعلون للكون إلَهين: إلهاً للخير وإلهاً للشر. وأن الله وحده لا شريك له، ولهذا ضل المشركون الذين عدلوا به الأصنام أو ساووا به الأوثان. .

ومنها أن الآية تقرر حقيقة ما عليه الكفار من عقول وتصورات،

ومباحث ومناهج حياة، وهي أنهم ليسوا على شيء، ولا يتصفون بالمنهجية ولا بالعلمية ولا بالتوثيق والاتزان، وذلك لأنهم يستخرجون من المقدمات الصحيحة نتائج خاطئة باطلة، وكان الأوْلى أن يقطفوا منها ثماراً صحيحة، فالله هو الخالق الباري وحده فكيف يعدل عنه إلى غيره؟ ويساوي به غيره وهو عاجز عن فعل أي شيء؟..

ومنها أن الآية تقرر أن العدل عدلان: عدل محمود مطلوب وهو المساواة بين المتساويين المتماثلين، وهو العدل بين الناس والتسوية بينهم، وهو ما طولب به المسلمون أساتذة العالم.. وعدل مذموم مرفوض، وهو في حقيقته ظلم، وهو المساواة بين غير المتساويين، وعدم ملاحظة الفروق بينهما، كالمساواة بين المؤمن والكافر في التكريم، أو المساواة بين المؤمن والعدو في الموالاة والمحبة، أو المساواة بين المؤمنين والمجرمين في الحياة، والمساواة بين الله في عظمته وبين البشر في ضعفهم في العبادة والدينونة والخضوع.. وغير ذلك.

وما هي إيحاءات وظلال ولطائف قوله تعالى في صفة الأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩] وعلى الأخص ما هي ظلال ولطائف الصورة المجسمة المؤثرة لتبوء الإيمان ــ بعد التمتع بتملّي ما فيها من تجسيم فني للإيمان المعنوي، حيث عرض في صورة مادية إذ أصبح كالبيت يدخل فيه الإنسان ويتبوأ له فيه مقعداً، ويلاحظ القارىء البصير بخياله اليقظ حركة هذا الإيمان، وقد تحول إلى بيت صالح للإقامة فيه، وحركة المؤمن وهو يدلف إلى هذا البيت الإيمان ليتبوأ فيه مسكناً ــ إنه يعرض لطائف ندية، ويلقي ظلالاً وارفة.. ويطالب كل مؤمن أن يقيم في بيت من إيمان خالص، وأن ينصب عليه قبة من إيمان، وأن يستظل بمظلة من إيمان، وأن لا تفارقه في لحظة من لحظات

حياته، وبهذا يتحول إيمان المؤمن من إيمان سلبي خامد إلى إيمان إسلامي فاعل عامل حي موجه رائد قائد.. إنه سيبقى في حصن إيماني، وفي حرز مكين، طالما بقي متبوءاً هذا الإيمان.. فإذا ما خرج من بيت الإيمان، أو أخرج أحد حواسه من نوافذه فإن الشياطين الراصدة له بانتظاره، فستخطفه إلى الظلمات، وتهدم عليه بيته، وتنغص له حياته، وتسمم له عيشه، وتقوده إلى نار جهنم.

● ● ●

ـ ١٠ ـ

غنى النصوص بالمعاني والدلالات

وصف الله كتابه الكريم بأنه مبارك فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] والبركة في هذا القرآن شاملة عامة، تسري في كل نص فيه، وتبرز في كل موضوع من موضوعاته، وتلحظ في كل جانب من جوانبه.. ولعل من مظاهر هذه البركة وصورها، البركة في نصوصه، حيث تجد النص قليلاً في كلماته قصيراً في عباراته، لكنه غني في دلالاته، شامل في معانيه، عظيم في توجيهاته، عملاق في إيحاءاته..

ولهذا كان من أبرز سمات القرآن في أسلوبه ـ كما يقول العلامة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه الرائد «النبأ العظيم» ـ القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى، ولذلك كل أسلوب القرآن موجز إيجازاً قاصداً، لا إطناب فيه ولا حشو ولا استطراد.. وإنك إذا نظرت إليه فستجد «بياناً قد قدِّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير» ـ كما يقول الدكتور دراز ـ وحتى يتضح لك هذا يدعوك إلى أن تقوم بتمرين عملي على نصوص القرآن: «ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعدَّ ما أحصته كفك من الكلمات عداً، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره، خارجاً عن الدفتين، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك، ثم انظر: كم كلمة تستطيع أن تسقطها

أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك» [النبأ العظيم: ١٠٥].

ويتحدث الإمام سيد قطب عن غنى النصوص بدلالاتها وأصالتها وجمالها فيقول: «إن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح، دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات. وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها.. بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضع! وهي ظاهرة قرآنية لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها..» [الظلال: ٣/ ١٧٨٧].

ولا بد للقارىء البصير الذي يريد أن يعيش إيحاءات القرآن وظلاله ولطائفه ـ كما بينا في المفتاح السابق ـ أن ينطلق من هذه القاعدة، وأن ينظر له بهذا المنظار، وأن يفتح كنوزه المذخورة بهذا المفتاح، فيتعرض لها ويلحظها ويعيشها ويشير إليها.

الآية التي أوردناها قبل قليل ـ على سبيل المثال ـ كم من الدلالات والمعاني يمكن أن تستخرج منها؟ وكم من مظاهر البركة وصورها وألوانها يمكن أن تؤخذ منها؟ ـ على القاعدة البلاغية «حذف المعمول يفيد العموم» فالقرآن مبارك في كل شيء، بركة عامة شاملة ـ إنه مبارك في مصدره لأنه كلام الله، ومبارك في مكانه في اللوح المحفوظ، ومبارك في حامله جبريل عليه السلام، ومبارك في من يشيعه من الملائكة، ومبارك في من تلقاه وهو رسول الله عليه السلام، ومبارك في من استقر فيه وهو قلب الرسول عليه السلام، ومبارك في كلماته فهي قليلة في مبناها غنية في معناها، ومبارك في حجمه القصير وعلومه الغزيرة، ومبارك في علومه ومعارفه

ـ ومكتبة التفسير وعلوم القرآن على طول التاريخ الإسلامي مصداق هذا ـ ومبارك في تشريعاته ومناهجه ومبادئه، ومبارك في رسالته ومهمته وأغراضه، ومبارك في أثره وتأثيره وآثاره.. إلى غير ذلك من صور البركة التي تجلت فيه..

يقول سيد قطب عن البركة في حجمه ومحتواه: «فإن هو إلاَّ صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه، ما لا تحويه عشرات من هذه الكتب الضخام، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه! وإن الذي مارس فن القول عند غيره من بني البشر وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول، ولا يعالجون قضايا التعبير.. إن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية ـ وإن هناك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز ـ ولا في أضعاف أضعافه ـ عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات! وإن الآية الواحدة تؤدي من المعني وتقرر من الحقائق، ما يجعل الاستدلال بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرداً لا نظير له في كلام البشر..» [الظلال: ٢/ ١١٤٧].

سورة العصر ـ على سبيل المثال ـ من أقصر سور القرآن آياتها ثلاث، ومع ذلك غنية في معانيها حيث تكتب فيها كتب ومجلدات، وصدق الإمام الشافعي في وصفها «لو تدبر الناس سورة العصر لوسعتهم».

كم سيخرج القارىء بزاد من المعاني والدلالات، وكم سيستنبط من الحقائق والتوجيهات، وكم سيقف على ثروة من القيم والتقريرات لهذه النصوص، عندما يتعامل معها على هذا الأساس، إنه سيحتاج إلى صفحات كثيرة ليسجل عليها ما أوحت له بها من إيحاءات..

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ [المجادلة: ٥].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤].

• • •

- ١١ -

الاعتناء بمعاني القرآن
التي عاشها الصحابة عملياً

نشأ الصحابة على القرآن الكريم، وعاشوا في ظلاله، وتذوقوا آياته، وتفاعلوا مع نصوصه، وأدركوا هديه، وأضاءت إليهم أنواره.. فكانوا جيلاً قرآنياً فريداً.

وقد رووا أحياناً بعض ما كانوا يجدونه من تأثير القرآن فيهم، وما يعيشونه من إيحاءاته ومعانيه.. وهذا لا يمثل إلاَّ النزر اليسير الضئيل، فقد كان ما عاشوه من ذلك أضعاف أضعاف ما روي عنهم..

ولكن تلك الروايات التي نقلت عنهم ذات دلالة على منهج تعاملهم مع القرآن وصلتهم به ونظرتهم إليه، ويمكن للقارىء أن يقتدي بهم في ذلك، وأن يحاول أن يجد من القرآن بعضاً مما وجدوه، وأن يعيش فيه شيئاً مما عاشوه.. واطلاعه على ما روي عنهم، أكبر عامل يساعده على اقتدائه بهم واحتذائه حذوهم، واتباعه خطواتهم.

ولقد سبق إيرادنا لقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به».

وقول عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عندها، . . ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده، ينثره نثر الدقل. . ».

إن وقوف القارىء على تعامل الصحابة مع القرآن، واعتناءه بالمعاني والإيحاءات التي حصّلوها من الحياة في ظلال القرآن، يُعَرِّفه كيف تقبل القلوب الطاهرة على القرآن وتتفاعل به، فيسعى ليكون واحداً من هؤلاء.

والنماذج في هذا كثيرة، والأمثلة عليه وافرة، نقتطف منها ما يلي:

روى مسلم وأبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس، فنزلت: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤] فمر رجل من بني سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر، قد صلوا ركعة، فنادى: ألا إن القبلة قد حولت، فمالوا كما هم ركوعاً إلى الكعبة».

فهذه الرواية تدلنا على نظرة الصحابة للتوجهات والتكاليف الربانية، وعلى قلوبهم المتبوئة للإيمان وهي تتفاعل معها، وعلى الاستجابة الفورية في التنفيذ والالتزام.

وأخرج البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود ــ والرواية لأبي داود ــ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ، فغشيته السكينة، فوقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي،

فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ، ثم سري عنه: فقال لي: أكتب، فكتبت في كتف: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . .﴾ [النساء: ٩٥]، فقام ابن أم مكتوم ـ وكان رجلاً أعمى ـ لما سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله: فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه، غشيت رسول الله ﷺ السكينة، فوقعت فخذه على فخذي، ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى، ثم سري عن رسول الله ﷺ فقال: إقرأ يا زيد. فقرأت: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾، فقال رسول الله ﷺ: ﴿غير أولي الضرر. .﴾ الآية كلها. قال زيد، أنزلها الله كلها فألحقها». .

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على المسلمين، وقالوا: أينا لا يظلم نفسه، فقال رسول الله ﷺ: ليس ذلك: إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وروى أحمد في مسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله: كيف الفلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فكل سوء عملناه جزينا به ـ وفي رواية أخرى قال: فلا أعلم قد وجدت انفصاماً في ظهري حتى تمطيت لها! فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا بكر؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟ فقال النبي ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ قال: بلى! قال: فهو مما تجزون به».

وروى ابن جرير الطبري قال: قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة

براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١]، فقال: أرى ربنا استفرنا شيوخاً وشباباً جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلاَّ بعد تسعة أيام فلم يتغير، فدفنوه بها..».

هذا ويجد القارىء الأقوال والروايات عن الصحابة في ذلك في كتب التفسير بالمأثور، وفي كتب أسباب النزول، وفي كتب الأحاديث من الصحاح والسنن، وفي كتب السيرة وحياة الصحابة.. وهي كثيرة..

• • •

ـ ١٢ ـ
تحرير النصوص القرآنية
من قيود الزمان والمكان

القرآن كتاب الله الخالد، صالح لكل زمان ومكان، ونصوصه تعطي توجيهاتها لكل بني الإنسان، ويتفاعل معها المؤمنون مهما كان مستواهم المادي والثقافي والحضاري، وفي أية بقعة في هذا العالم، وفي أية فترة من فترات التاريخ..

أقبل الصحابة على نصوصه فعاشوا بها، ولم يقيدوها فيهم أو يقصروها عليهم، وأقبل التابعون عليها فعاشوا بها، وأقبل تابعوهم عليها كذلك فعاشوا بها، وهكذا كل طائفة من العلماء، كانت تجد عند القرآن ما تريد، وتلقي عند نصوصه ما هي بحاجة إليه.. فعلى قارىء القرآن أن ينظر إلى القرآن بهذا المنظار، وأن يتعامل معه على هذا الأساس، لا يجوز أن يقيد نصوصه بحالة من الحالات أو فترة من الزمان ـ إلاَّ ما كان مقيداً بذلك ـ ولا أن يقصرها على شخصٍ ما أو قومٍ ما ـ إلاَّ ما كان مقصوراً عليه ـ إنه لا بدَّ أن يحرر هذه النصوص من قيود الزمان والمكان والأشخاص والأقوام، لتعطي دلالاتها لكل الناس، وتطلق إشعاعاتها لكل جيل، وتنشر أضواءها على العالمين..

أما إذا قصر هذه النصوص على حالة أو فترة أو شخص أو بلدة

أو قرن، فإنه سيقيدها وسيفرغها من معانيها، ويقزمها عن دلالاتها، ويحرمها من أداء أهدافها، وكأنه يجعلها سجينة فهم، أو أسيرة وضع، أو رهينة قوم، وبهذا تذوي هذه النصوص وتموت.. وتتحول إلى عبارات فارغة، تتحدث عن فترة من التاريخ سابقة لأمة من الناس ماضية.. لا يجوز لقارىء مسلم أن يميت نصوص القرآن بين يديه، ولكنه يفسح لها الطريق لتعيش حياتها وتؤدي رسالتها، وتؤثر في الإنسانية جمعاء، وتنشر عليهم من فيوضاتها وأنوارها.. كل جيل من أجيال المسلمين كان يجد في نصوص القرآن حديثاً لواقعه وإصلاحاً لحياته، وكأنها تنزلت اللحظة عليهم، وكل مفسر من المفسرين كان ينطلق من نصوص القرآن لتربية قومه وإصلاح أمورهم... وكل تفسير من تفاسير القرآن يمكن أن تستخرج منه الحالة الثقافية والمستوى الحضاري، والوضع الأخلاقي والاجتماعي والإيماني والسلوكي للعصر الذي عاش فيه المفسر، وكان هذا التفسير سجلاً حضارياً تاريخياً وثائقياً لحالة ذلك العصر.. وما هذا إلا لأن نصوص القرآن منطبقة على زمان المفسر ومكانه، وموجهة للناس من حوله..

ولهذا كم كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألمعياً وبصيراً وصادقاً، عندما وصف القرآن وصفاً تنطبق عليه هذه القاعدة فقال عنه: «إنه لا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه..».

ونحن لا ننكر أن بعض الناظرين في القرآن من السابقين أخطأوا في تعاملهم معه، فقصروا بعض نصوصه على أناس من السابقين، وقيدوا بعضها بحالات ماضية، وقزموا هذه النصوص وفرغوها من كثير من معانيها، وحجبوا عن القراء الكثير من دلالاتها.. قوله تعالى ـ مثلاً ـ عن

الحاكمية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، وفي آية أخرى: ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي آية ثالثة: ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧]. خاصة عند هؤلاء في بني إسرائيل قبل الإسلام، ولا تنطبق على مسلم رفض حكم الله طائعاً مختاراً ـ حاكماً أو محكوماً ـ إن هؤلاء قزموا الآية وجعلوها أسيرة فترة ماضية من الزمان.. مع أنها تنطبق على كل إنسان أينما كان ومهما كان، رفض حكم الله طائعاً مختاراً، وآثر أن يتحاكم إلى الطاغوت، فهو كافر ظالم فاسق بنص القرآن..

قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠] رفض لحكم الجاهلية والجاهليين. والجاهلية عند هؤلاء هي الحالة التي كان عليها العرب قبل الإسلام، والمستوى المتدني من الجهل والجهالة وعدم العلم والثقافة والحضارة، والجاهليون هم أولئك الناس فقط، إن هذا الفهم يقزم الآية ويفرغها من معانيها، ويميتها في أفواه القارئين لها، لأنها تتحدث عن أموات مضوا في سالف الزمان.. مع أنها صالحة لكل الناس، ومنطبقة على كل زمان، وفاعلة في كل مكان، إنها تضع الجاهلية في مقابلة حكم الله، فالجاهلية هي كل حالة أو وضع أو تشريع أو نظام أو مجتمع أو مناهج أو توجيهات، يرفض أصحابه الاحتكام إلى شرع الله، ويقبلون أن يحكموا بغيره.. فهذه هي الجاهلية في أية فترة من فترات التاريخ، وفي أية بقعة من العالم، وأهلها جاهلون جاهليون مهما بلغ رقيهم المادي ومستواهم العلمي والتكنولوجي والثقافي..

وقوله تعالى عن عداوة الكافرين للمؤمنين وعن هدفهم من حربهم ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧] ليس

خاصاً بحرب قريش لرسول الله عليه السلام والمسلمين في المدينة ـ وإن كانت نزلت بهذه المناسبة ـ ولكنها تتحدث عن هدف عام للكفار أينما كانوا، في حربهم للمسلمين حيثما وجدوا.. هذه الآية تنطبق على حرب الرومان للمسلمين وحرب الفرس والصينيين والهنود والمغول والصليبيين والأوروبيين في القرون الوسطى، والروس القياصرة والروس البلاشفة لهم، وعلى حرب الإنجليز والمستعمرين المعاصرين، وعلى حرب الأمريكيين والشيوعيين واليهود والنصارى والباطنيين للمسلمين في هذه الأيام، وستبقى تعطي دلالاتها وتنطبق على أية حرب بين المسلمين والكفار حتى قيام الساعة..

إن سبب نزول الآية يجب النظر فيه وقبوله عندما يصح سنده، وإضافة أبعاد جديدة للنص على أساسه، لكن لا يجوز أن نقيد النص به ونقصره عليه، بل نعممه على كل الحالات المشابهة والنماذج المماثلة المتكررة إلى قيام الساعة، ولهذا قال علماؤنا الأفذاذ مقررين قاعدة أساسية في تحرير النصوص من قيود الزمان والمكان «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

• • •

ـ ١٣ ـ

ملاحظة البعد الواقعي للنصوص القرآنية

إنطلاقاً من الأغراض الأساسية للقرآن، وتطبيقاً للمهمة العملية الحركية له، فإن القارىء البصير لا بد أن يلاحظ البعد الواقعي لآيات القرآن، وأن يلتفت إلى انطباقها على الواقع المعاصر، وأن يدرك معالجتها له وتقويمها لأموره وإصلاحها لمناهجه ومظاهر الحياة فيه..

إن القارىء عندما يحرر الآيات من قيود الزمان والمكان، سيجدها آيات معجزة حية، تصف له حياته، وتتحدث له عن واقعه، وتهتم بالقضايا والمشكلات التي حوله.. إنه عندما يقرأ سور القرآن على هذا الأساس سيجدها سوراً حية حكيمة متفاعلة قائدة وموجهة.. وعندما ينظر للقرآن بهذا المنطق سيجده صديقاً ودوداً مؤنساً أليفاً حبيباً يناجيه ويخاطبه ويعيش معه.. ويصحبه في رحلة شيقة ممتعة، ويقوده في انطلاقة حكيمة مبصرة لعالمه الواقعي، وحياته المعاشة.. سيجد هذا القارىء القرآن وسوره كما وجد ذلك سيد قطب، عندما أدرك كيف يتعامل مع القرآن، ويلاحظ البعد الواقعي لنصوصه وتوجيهاته، والذي عبر عن ما وجده فيه بقوله: (هكذا عدت أتصور سور القرآن، وهكذا عدت أحسها، وهكذا عدت أتعامل معها. بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته وملامحه وسماته.

وأنا أجد في سور القرآن ـ تبعاً لهذا ـ وفرة بسبب تنوع النماذج، وأُنساً بسبب التعامل الشخصي الوثيق، ومتاعاً بسبب اختلاف الملامح والطباع، والاتجاهات والمطالع..

إنها أصدقاء.. كلها صديق.. وكلها أليف.. وكلها حبيب.. وكلها ممتع.. وكلها يجد القلب عنده ألواناً من الاهتمامات طريفة، وألواناً من المتاع جديدة، وألواناً من الإيقاعات، وألواناً من المؤثرات، تجعل لها مذاقاً خاصاً، وجواً متفرداً..

ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة.. رحلة في عوالم ومشاهد، ورؤى وحقائق، وتقريرات وموحيات، وغوص في أعماق النفوس، واستجلاء لمشاهد الوجود.. ولكنها كذلك رحلة متميزة المعالم في كل سورة ومع كل سورة..) [الظلال: ٣/ ١٢٤٣].

كل آيات القرآن لها بعد واقعي، سواءً آيات العقيدة أو القصص أو الأخبار أو التوجيه أو الأحكام، أو التي تتحدث عن السنن والمبادىء والقيم والموازين.. أو غير ذلك..

الآيات التي تعرفنا على الله سبحانه، وتعرض لنا مجالات سلطانه ومظاهر قدرته، وتحدثنا عن صفاته سبحانه وأسمائه نجد لها بعداً واقعياً.. فصفات الله سبحانه في نصوص القرآن صفات فاعلة إيجابية.. كما في علم الله الشامل لكل ما في الكون، وفي قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد: ٤]، فإذا ما استصحب دلالة هذه الآية الواقعية وعاشها بقلبه وكيانه، واستحضر معية الله له وعلمه بأحواله استقام على منهج الله وراقبه واتقاه. وكانت الآية حية واقعية تنير له حياته وتبصره بطريقه..

للقصص القرآني الذي يعرض أخبار السابقين ومواقفهم بعد واقعي، وكأنما يتحدث عن الناس ويصفهم ويحلل شخصياتهم.. ولا بدَّ للقارىء أن يلحظ هذا، وأن يستخرج من القصص دروساً في العقيدة والدعوة والحركة والتربية والمواجهة والجهاد، وأن يستخرج منها معالم قرآنية وأنواراً كاشفة وبصائر هادية..

ونرجو الله أن يعيننا على إعداد دراسة عن الواقعية في القصص القرآني والإشارة إلى دروسها وعبرها في العقيدة والدعوة والحركة والجهاد، وستكون بعنوان: «مع قصص السابقين في القرآن» وستكون بعد هذا الكتاب بعون الله..

وندعو القارىء إلى أن يلحظ الأبعاد الواقعية للآيات التالية:

قوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۝٦١﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦١]. وقوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۝٢٠﴾ [الكهف: ١٩ ـ ٢٠] وقوله تعالى في دعوة زكريا عليه السلام أن يرزقه بغلام: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مريم: ٥ ـ ٦].

وقوله تعالى عن حكم فرعون الذي يعد نموذجاً لأي حكم ظالم وحاكم جائر: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: ٤].

وقوله تعالى عن إيذاء المجرمين الكافرين للدعاة المؤمنين وسخريتهم بهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢].

وأن يلحظ القارىء الأبعاد الواقعية الاقتصادية لهذه الآية: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

والأبعاد الواقعية لهذه السنة الربانية: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

والأبعاد الواقعية الأسرية لهذه الآية: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

والأبعاد الواقعية لهذه الآية التي تقرر مصير كل حرب ضد هذا الدين، وهزيمة جنودها مهما كانوا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨ ـ ٩].

● ● ●

ـ ١٤ ـ

الوقوف في وجه المادية الجاهلية

مرَّ معنا أن من أهداف القرآن الأساسية قيادة الأمة المسلمة في مواجهتها مع الجاهلية من حولها. وذلك لأن الجاهلية لن تدع الأمة المسلمة تعيش حياتها، بل ستعلن عليها حرباً بدون هوادة.. وهذه بدهية يدركها من له أدنى تدبر للقرآن، وتفحص للتاريخ الإنساني الذي يسجل الحرب بين الحق والباطل.. ونتج عن هذا وغيره إدراك المهمة العملية الحركية للقرآن، هذه المهمة التي تعين القارىء على إدراك البعد الواقعي لنصوص القرآن، وعلى الحركة به في الواقع، والنظر إلى أحداث الحياة من حوله بمنظار القرآن ووزنه بميزانه..

فإذا ما أدرك القارىء كل هذا، ووقف عليه، فلا بد أن يواجه أعداءه بالقرآن، وأن يعاملهم على أساسه، وأن يجاهدهم به، وأن يقف في وجه مكائدهم ومؤامراتهم، وأن يرد سهامهم وحربهم، وأن يكون زاده في هذا كله هو القرآن الكريم.. والقرآن قادر بإذن الله على أداء هذا، على أتم صورة، وأدق أداء..

هذا ما فعله السابقون مع أعداء هذا الدين، وقد وجدوا عند القرآن ما بحثوا عنه، ونجحوا في مواجهة هؤلاء والوقوف أمامهم والانتصار عليهم، لأنهم سمحوا للقرآن أن يقودهم وأن يوجههم وأن يحركهم في مواقعهم..

وفي عصرنا الحاضر نجد أن المادية الجاهلية ــ التي يسمونها خطأ «الحضارة الغربية» قد تداعت ــ بمختلف أنظمتها ودولها ومبادئها ومذاهبها ــ على الأمة المسلمة، ووجهت لحربها كل وسائلها وأساليبها، واحتلت من الأمة المسلمة مواقع عديدة من حياتها السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية والتعليمية.

واستيقظ الأحياء المبصرون العقلاء من الأمة ــ وهم الملتزمون بالإسلام والداعون إليه عقيدة وعبادة ومنهاج حياة ــ وواجهوا الهجمة المادية الجاهلية، ووقفوا في وجهها وردوا على أسلحتها وأساليبها..

لا بد للقارىء البصير للقرآن الذي يواجه هذه الهجمة، من أن يقبل على القرآن الكريم ليتحرك به ويجاهد من خلاله، لا بد أن يقف في وجه المادية الجاهلية، وأن يواجهها على أساس هذا القرآن. وأن تكون نظرته إليها كنظرة سيد قطب الذي استعان بالقرآن في مواجهته لها فنجح.. وفي ذلك يقول: «وعشت ــ في ظلال القرآن ــ أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية لما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال.. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال، ولثغة الأطفال.. وأعجب.. ما بال هؤلاء الناس؟..

وعشت أتملى ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود.. وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية في شرق وغرب، وفي شمال وجنوب. وأسأل كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم، وعندها ذلك المرتع الزكي، وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء؟..» [الظلال: ١/ ١١].

وعندما يقف المؤمن بالقرآن في وجه المادية الجاهلية فإنه لن «يضبع» بها، ولن يخاف منها، ولن تسترهبه وتقذف الوهن واليأس والاستسلام في قلبه.. بل سيعرفها على حقيقتها. وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها.. وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورها وادعائها.. إن القرآن يضعها أمامه بحجمها الطبيعي، ووزنها الطبيعي، بدون هالة مصطنعة، أو انتفاش خادع.

رجال هذه المادية الجاهلية في المنظار القرآني «عميان» ونتاجهم في بلادهم هو نتاج عميان ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد: ١٩].

واهتماماتهم وأهدافهم ورغباتهم إنما هي لهو ولعب ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الطور: ١٢] ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وهم في حقيقتهم دواب، في حياتهم وعقولهم ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٥]، ودواب في أكلهم وشربهم ومعيشتهم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد: ١٢] ودواب قادهم الشيطان، واحتنكهم، فأسلموا له قيادهم كما تسلم الدابة قيادها لصاحبها عندما يسحبها من مقودها ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهم سذج أطفال في تفكيرهم وفي ممارستهم، تنطلي عليهم الألاعيب، ويخدعون بالزخارف كما تخدع الأطفال ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] وهم قد يتعالمون فيدّعون العلمية والمنهجية والموضوعية ولكنهم لا يتمتعون بشيء من هذا، ولو اتصفوا بجزء منه لقادهم نظرهم في الكون والحياة إلى الخضوع الكامل الشامل لله

على منهج هذا الدين.. إن المقدمات الصحيحة التي تعطي عند العاقل الواعي المتزن نتائج صحيحة، تعطي عند هؤلاء نتائج باطلة خاطئة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، وهم سذج يتصفون بالبله و «العبط» في حربهم لهذا الدين ولرجاله، لأنهم في الحقيقة يحاربون الله، ويقفون في وجه نوره.. وهل يفعل هذا عاقل رشيد متزن؟ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢﴾ [التوبة: ٣٢].

وإن الله يمكر بهم ويسخر بعقولهم، ويقذف في قلوبهم اليأس من انتصارهم في مواجهتهم لهذا الدين، إنهم يبذلون جهوداً هائلة، وينفقون أموالاً ضخمة، وهي ضائعة، ويحاربون في معركة معروفة نتيجتها، فيا لطول حسرتهم وحزنهم، وليموتوا بغيظهم.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾ [الأنفال: ٣٦ ـ ٣٧].

• • •

- ١٥ -

توسيع التفسير ليشمل السيرة وحياة الصحابة

قصر بعض الدارسين للقرآن والناظرين فيه التفسير في زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام على مجال واحد من مجالاته وهو المجال النظري، فصاروا يبحثون في كتب الحديث وكتب التفسير بالمأثور، عن الروايات والأحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام والمتعلقة ببيان معنى كلمة قرآنية أو توضيح حكم قرآني، واكتفوا بها فقط كنماذج لتفسير رسول الله عليه الصلاة والسلام.. ثم توجهوا إلى أقوال الصحابة في تفسير القرآن، وقصروها على بيان الصحابي لمعنى كلمة غريبة أو سبب نزول أو توضيح حكم أو تحديد ناسخ ومنسوخ أو غير ذلك.. وإذا نظرنا في الحصيلة التي خرجوا بها من جمعهم لهذه الروايات والآثار فإنها ستكون قليلة وبخاصة إذا اعتمدنا ما صح سنده منها.. وهذه الروايات نجدها في كتب الصحاح والسنن، وفي كتب التفسير بالمأثور وفي مقدمتها جامع البيان للطبري، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي..

إن التفسير في عهد رسول الله ﷺ والصحابة الكرام ليس مقصوراً على الجانب النظري، لأنهم هم لم يقصروه عليه، وكم نخسر لو قصرناه عليه.. لقد كانوا أبصر بالقرآن منا، وأكثر إدراكاً لأغراضه منا، وأشد تعلقاً وارتباطاً

به منا، وأعظم حرصاً على أن يعيشوا به منا، ويحولوه من توجيهات نظرية إلى حقائق حياتية معاشة، ويكونوا الصورة العملية الواقعية الحية لنصوصه وآياته. .

إن التفسير زمن الرسول عليه السلام وأصحابه شمل جانبين: جانب نظري وهو ما أشرنا إليه، وإلى قلته وضآلته بالقياس إلى الجانب الآخر. . وهو الجانب العملي التطبيقي الواقعي. . لقد عاش رسول الله عليه الصلاة والسلام بالقرآن عملياً، وكان يحرص على أن يلتزم توجيهاته وأحكامه، وأن ينفذ أوامره وواجباته، فكان هو بسيرته وحياته أول مفسر للقرآن الكريم. . ولهذا كم كانت السيدة عائشة رضي الله عنها حكيمة وذكية ونافذة البصر والبصيرة، عندما كان جوابها على سؤال وجه إليها عن خلق رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وكأنها تعني ما قلناه من أن سيرته وحياته وخلقه وسلوكه تفسير لتوجيهات وآيات القرآن. . وبهذا الفهم للتفسير لا بدَّ أن ننظر إلى صلة الصحابة بالقرآن وإلى ممارستهم لحياتهم الواقعية اليومية، فقد كانوا جيلاً قرآنياً فريداً يعيشون بالقرآن عملياً، وكان القرآن حاضراً متجدداً معهم، ويمكن أن تستخرج من نصوصه صورة شبه متكاملة لحياة الصحابة ومستواهم الإيماني، والتزامهم العملي، ووقوعهم أحياناً في تقصيرات وأخطاء يسيرة عالجها القرآن في وقتها. . إن أي ناظر في كتب أسباب النزول وفي سيرة رسول الله عليه السلام، وفي مغازيه وجهاده، وفي الكتب التي تحدثت عن حياة الصحابة وطبقاتهم ومناقبهم. . سيقف على ثروة ضخمة لهؤلاء الكرام، يصدق عليها أنها تفسير عملي للقرآن الكريم. . فلماذا نستبعد كل هذه الثروة الغنية، ونكتفي بألفاظ وكلمات يسيرة منقولة عنهم في تفسير القرآن؟ وكثير منها لم يصح سنده؟

فعلى القارىء المتدبر للقرآن أن يوسع التفسير، وأن يدخل فيه كل سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام ومغازيه، وشمائله وفضائله، وكل ما صح من حياة الصحابة بالقرآن، وجهودهم وجهادهم لأن يبقوا على القمم التي وضعهم عليها القرآن. . وعندها يستفيد هذا القارىء فائدة تفسيرية وتربوية وسلوكية وإيمانية وعملية. .

● ● ●

ـ ١٦ ـ
الشعور بأنَّ الآية موجَّهة له

سبق وأن أشرنا في آداب التلاوة إلى أن القارىء لا بدَّ أن يأخذ القرآن على أنه موجه له هو، وأن الخطاب يعنيه هو.. وها نحن نورد هذا هنا لأهميته، ولحسن تدبر القرآن والتعامل معه وفقهه..

وقبل حديثنا عنه نحب أن نورد كلام الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء عنه «التخصيص: وهو أن يقدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدَّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه..» إلى أن يقول: «وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارىء الواحد مقصود، فماله ولسائر الناس، فليقدِّر أنه المقصود، قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله.. وإذا قدَّر ذلك لم يتخذ قراءة القرآن عمله، بل يقرأُه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه.. ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، فنتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخطوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات..» [إحياء علوم الدين: ١/ ٥١٧ ـ ٥١٨ باختصار].

إن القارىء المؤمن مطالب أن ينظر إلى القرآن بهذا المنظار، وأن يتعامل معه على هذا الأساس، وأن يفتح كنوزه بهذا المفتاح.. ولو أن كل قارىء فعل هذا فسوف يخرج من تدبر القرآن بزاد عظيم، من الإيمان والالتزام والتنفيذ والعمل، وسيكون رجلاً قرآنياً عملياً نافعاً مؤثراً..

إن مما يؤسف له في صلة المسلمين المعاصرين بإسلامهم وقرآنهم وتعاملهم مع ربهم، أنهم يفعلون عكس هذه القاعدة.. إن الواحد منهم لا يشعر أنه هو المقصود أساساً بالأمر أو التوجيه، وأنه المطالب به، وأن شخصه بذاته معني به بخاصة.. ولكنه يشعر أن الخطاب لفلان أو علان.. إنه يلقي المسؤولية عنه، ويلغي خصوصيته ليوجهها إلى غيره، إنه «يوزِّع» الواجبات على غيره، بعد أن «يزحلقها» عنه، ولهذا لم يتفاعل معها ولم يسعَ لكي يلتزم هو بها..

إذا قرأ آيات القصص قصرها على السابقين، وإذا قرأ آيات الخطاب والتكليف للرسول عليه الصلاة والسلام خصه هو بها، وإذا قرأ حادثة زمن الصحابة فهي لهم فقط.. وإذا سمع ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهي تخاطب الصحابة أو مؤمنين في العوالم الأخرى، آيات الزكاة والصدقة للأغنياء فقط، وآيات الحكم والالتزام والطاعة للحكام فقط، وآيات الجهاد والحرب للعسكريين فقط، وآيات الولاء والمحبة والنصرة للسياسيين فقط، وآيات الدعوة والبلاغ للشيوخ والعلماء فقط.. وهكذا.. وهكذا وإذا بهذا المسلم لم توجه له آية، ولم يطالب بحكم، ولم يكلف بواجب.. فإذا ما وصلت الآيات إلى الآخرين فإنهم سيفعلون مثل هذا، ويحرصون على أن يوجهوها لغيرهم ويزحلقوها عنهم.. فنرى القرآن موجهاً لأكوان أخرى، ولأقوام يوجدون في عالم الأحلام والخيالات والأوهام..

على القارىء البصير للقرآن أن يوقن أنه هو المقصود بالآية، وأنها

تعنيه هو، وتخصه هو، وتخاطبه هو، وتطالبه هو، وتحدثه هو.. فإذا قرأها فليفتح لها أجهزة التلقي والاستجابة ليلتزم بما فيها من توجيهات..

• • •

ـ ١٧ ـ
حُسن التلقّي عن القرآن

القرآن كلام الله، والله هو الذي يعين القارىء له على أن يتلقى عنه، إذا ما سلك السبيل الذي بيّنه الله فاستحضر معه وسائل الفهم وأدوات التدبر، وإذا ما طهر نفسه من الموانع والحجب والأكنة، التي تحجب عنه القرآن وإيحاءاته..

على القارىء أن يوقن أنَّ فهم القرآن إنما هو من نعم الله عليه، ومن مننه وأفضاله.. وأن هذا الفهم والتلقي والتدبر والتفسير إنما هو فتوحات من الله عز وجل، يفتح بها على من يشاء من عباده، عندما يكونون (أهلاً) لهذه الفتوحات، ووسطاً صالحاً لهذه الفيوضات، إن الفهم والتدبر والتفسير نور من الله سبحانه، ونور الله لن يصل إلى قلب مغطى بالحجب والموانع، وأنها هدايا من الله ورحمة منه، وهدايا الله لا يصلح لها العصاة، ورحمة الله لن تفتح لها قلوبهم..

ونورد للقارىء قول أبي طالب الطبري في أوائل تفسيره ــ الذي سجله له السيوطي في الإتقان ــ في شروط المفسر وآدابه، على اعتبار أنها تصلح شروطاً وآداباً للمتدبر للقرآن المتعامل معه المتلقي عنه، تضْمن له إنْ راعاها حسن التدبر والتعامل والتلقي.. قال: «إعلم أن من شرطه صحة الاعتقاد أولاً، ولزوم سنة الدين، فإن من كان مغموصاً عليه في دينه

لا يؤتمن على الدنيا فكيف على الدين، ثم لا يؤتمن في الدين على الإخبار من عالم فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى، ولأنه لا يؤمن ـ إن كان متهماً بالإلحاد ـ أن يبغي الفتنة، ويغر الناس بليِّه وخداعه. .» إلى أن يقول: «ومن شروطه صحة المقصد فيما يقول ليلقى التسديد، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وإنما يخلص له القصد إذا زهد في الدنيا، لأنه إذا رغب فيها لم يؤمَن أن يتوسل به إلى غرض يصده عن صواب قصده، ويفسد عليه تمام عمله. .» [الإتقان للسيوطي: ٢/١٧٦].

ولقد سبق أن تحدثنا عن مفتاح ضروري للتعامل مع القرآن، وهو دخول القارىء عالم القرآن بدون مقررات سابقة، وهو مرتبط بهذا الأساس الذي نقرره هنا. فهناك اشترطنا له حسن المدخل لعالم القرآن وحسن الاستعداد له وحسن الوصول إليه، وهنا نشترط له حسن البقاء معه، وحسن التلقي عنه، وحسن التعرض لأنواره، وحسن الحياة مع فتوحات الله ورحماته وفيوضاته فيه. وهذا كله لا يتحقق إلاَّ بصحة الاعتقاد أولاً ثم صحة المقصد والغاية ثانياً. . إن الأهواء والبدع والضلالات والانحرافات حجب وموانع على قلوب أصحابها، وإن المنكرات والمحرمات والمعاصي والذنوب حجب وموانع كذلك. وإن فساد المقصد وسوء الباعث و «دنيوية النية وتجاريتها» في التعامل مع القرآن كذلك. فلا بدَّ من الإخلاص لله والإنابة إليه والاستعانة به والتلقي عنه ليستفيد ويفيد. . عليه أن لا يفسر أو يفهم القرآن حسب معلوماته السابقة التي تخالف توجيهات القرآن، ولا حسب أهوائه وميوله ورغباته التي لا يقرها القرآن. . وإنما يسعى إلى فهم مراد الله سبحانه من كلامه وأخذه والتعامل معه والالتزام به، إنه من المرفوض أن يستغل أناس القرآن، وأن يتعاملوا معه تعاملاً مصلحياً نفعياً

تجارياً، وأن يوظفوه لدنياهم وأهوائهم وشهواتهم، وأن يقيدوا نصوصه بمعلوماتهم ومعارفهم المخالفة له.. إن هؤلاء محجبون عن القرآن، مخطئون في التعامل معه.

● ● ●

ـ ١٨ ـ

تسجيل الخواطر والمعاني لحظة ورودها

عندما يعيش القارىء مع القرآن بكل كيانه، ويتلقاه بكافة أجهزة التلقي والاستجابة عنده، سيأخذ عن القرآن الكثير من المعاني والإيحاءات، وترد على ذهنه وشعوره الخواطر واللطائف واللفتات والدلالات، وسيتذوق مذاقات، وسيجد راحة وسعادة، وسيتقلب في أفياء رحمة الله ونعمته.. عندها سيعرف معنى الحياة، وسيجد طعم السعادة، ويستروح الطمأنينة واليقين..

وهذا الذي يجده ويستشعره ويعيشه قد يزول وينتهي إذا ما أقبل على آيات أخرى، لأنه سيجد عندها معاني جديدة، وسيتلقى عنها مذاقات جديدة، وقد يزول وينتهي إذا غادر ظلال القرآن وأقبل على الدنيا بشواغلها وصوارفها، وقد يزول وينتهي إذا أزله الشيطان إلى المعصية أو الغفلة أو الشهوة.. ولذلك نوجه القارىء إلى أن يسجل ما يعيشه أولاً بأول، وأن يقيد خواطره ولفتاته ولطائفه لحظة ورودها، وأن يقتنص هذه المعاني والحقائق قبل أن ينساها أو يصرف عنها.. وعندها سيحصل على سعادتين اثنتين: السعادة الغامرة في أن يعيشها بكيانه ويتذوقها بمشاعره، وينفعل لها

بأحاسيسه، وترتد عنده إلى مذاقات وحقائق معاشة. . والسعادة الثانية في أن يحتفظ بها ويحرص عليها ويشعر بغناه بها، وثروته منها. . في أن يجعلها كنزاً من كنوزه الثمينة العتيقة، ورصيداً وافراً من علمه ومعارفه وحقائقه ويقينياته، ومعيناً ثرّاً معطاء يعود إليه عندما يحتاجه ليمده بالزاد والوقود والثقة والإيمان والثبات. .

ننصح القارىء أن يكون إلى جانبه أوراقه أثناء التلاوة، وأن يسجل فيها كل ما يجده، وأن لا يكون همه ــ وبخاصة عند أدائه لورد التدبر الذي أشرنا إليه، أن ينتهي من الآية أو الآيات بأقصر الأوقات. . إن حرصه على تقصير الوقت قد يكون مانعاً من تدبره للقرآن، وإن «الكم» القرآني وحرصه على تكثيره قد يكون مانعاً كذلك، فلا يلتفت إلى مقدار ما قرأ وما تدبر، ولا يلتفت إلى الوقت الذي أمضاه فيه، فكم من الأوقات أمضاها الصحابة والعلماء والمتدبرون للقرآن في تدبر آية من الآيات، وترديدها ساعات وساعات قد تستغرق الليل بطوله، رغم حرصهم على أوقاتهم وشعورهم بأهميتها وقيمتها وتحرجهم من أن يضيعوا لحظتها. . ومع ذلك جادوا بها من أجل التدبر والحياة في ظلال القرآن، وقدموها له بسخاء وكرم ويقين. .

الوقت عند القارىء البصير خادم للقرآن وتابع له، يوظفه توظيفاً نافعاً، ويبذله بذلاً كريماً بسخاء، وبدون منٍّ أو أذى. .

وإذا ما سار القارىء في يومه لعمله أو حاجته، أو ضرب في الأرض لوظيفته، أو ساح في ساعات نهاره، فماذا يشغل فكره ومشاعره أثناء سيره؟ وإلى أين سيرسل خطراته وخواطره وخياله؟ لا يجوز أن يخرجها عن عالم القرآن، بل يختار آية يعيشها بكيانه، ويرددها بمشاعره وحواسه، ويتلقى ظلالها وإيحاءاتها. . . وعندها يحاول أن يسجل ما تلقيه إليه. . فإن لم يستطع أثناء سيره فليكن هذا أول ما يقوم به عند حلوله ونزوله. .

كذلك إذا قرأ القرآن في صلاته بتدبر وانفعال ومعايشة، فكم سيرد عليه من معانيه وحقائقه ولطائفه؟ فإذا خرج من صلاته سجل ما وجده منها.

• • •

- ١٩ -
التمكن من أساسيات علوم التفسير

وهـذا شـرط لا بـدَّ منـه حتـى تكـون استنتـاجـات القـارىء صحيحـة واستدلالاته مقبولة، ونظراته صائبة، وتدبره في القرآن علمي منهجي، ونتائجه يقينية جازمة قاطعة، وحتى يحسن التلقي عن القرآن وفهمه، وحتى لا يلوي أعناق النصوص إلى خطأ أو باطل أو يقوِّلها ما لم تقله، أو يختلق لها ما ليس عندها. .

لقـد وضـع العلمـاء علـومـاً ومعـارف لخـدمـة القـرآن وحسـن تـدبـره وتفسيره، وهي علوم نظرية نافعة، وتعين على النتائج الصائبة. .

علـوم اللغـة ومبـاحثهـا وقضـايـاهـا، ومسـائـل النحـو ومـوضـوعـاتـه، وأساليب البيان والبلاغة وضروبها وصورها وألوانها، ومباحث الأصول وفروعه، وقضايا الفقه وأحكامه. . ثم موضوعات علوم القرآن الهامة والضرورية لكل ناظر في القرآن متدبر له مثل: أسباب النزول، وجو النزول، وزمان النزول، وملابسات النزول، والمكي والمدني في القرآن، والناسخ والمنسوخ في القرآن، وأساليب البيان في القرآن، والتصوير الفني في القرآن، وإعجاز القرآن، وبديع القرآن، وقصص القرآن، وأمثال القرآن، وأقسام القرآن، وأحكام القرآن، وجدل القرآن. وغير ذلك.

كل هذه العلوم والمعارف والمسائل والقضايا والمباحث، ضرورية للتعامل مع القرآن وتدبره والأخذ عنه، وعاصم يعصم القارىء من الخطأ والزلل ـ إذا صلحت نيته واستقامت حياته واستعاذ بمولاه. .

وقد يهول هذا بعض القارئين، فيشفقون منه ويستصعبونه، ويظنون أنفسهم غير مؤهلين ولا من أصحابه ولا قادرين عليه، ويقصرونه على العلماء المتخصصين في دراسة القرآن وتفسيره، من أصحاب الألقاب الجامعية وحملة الشهادات العليا، والممارسين لرسالة التدريس والتعليم والتوجيه. .

وهذا وهم باطل وظن خادع، فالقرآن ليس موجَّهاً لهذا الصنف من العلماء والمثقفين فقط، بل هو موجه أساساً لكل مسلم ومسلمة، حيث طولبوا بتلاوته والنظر فيه وتدبره. . وتحدثنا عن أهمية شعور القارىء بأنه هو المقصود أساساً بالخطاب القرآني، فإذا ما حول هذا إلى المختصين فكم سيخسر؟؟. .

ثم إن التمكن من أساسيات علوم التنفسير والإلمام بموضوعات علوم القرآن ليس شاقاً ولا مستحيلاً، فنحن عندما وجهنا القارىء إلى هذا المجال، لم نطلب منه أن يكون عالماً متخصصاً بكل موضوع من موضوعات القرآن وعلومه، ملماً بكل دقائقه وتفصيلاته وجزئياته ولطائفه وشوارده. . بل عليه أن يترك هذه التفصيلات والتدقيقات لأهل الاختصاص، إنما طلبنا منه أن يعلم ما يحتاجه من هذه العلوم ويطلع على الضروري منها للتعامل مع القرآن، ويأخذ مجمل الموضوع بإيجاز واختصار يحقق الغاية. . ويمكنه أن يكتفي بدراسة كتاب واحد من كتب علوم القرآن التي تعرض هذه العلوم والمعارف والموضوعات بإيجاز قاصد مجمل

مفيد..

ونحن على يقين بأن هذا القارىء عندما يتذوق حلاوة هذه العلوم والموضوعات ويجد طعمها ولذتها، ويفرح ويسر بالمعاني واللطائف والإضافات التي حصلها بسببها، فإنه يسعى بهمة وشوق وحماس إلى التمكن منها والزيادة المتجددة على رصيده منها. ورفده دائماً بلطائف وإشارات ونكات تثريه وتباركه، وكلما زادت مكتسباته من القرآن كلما زاد طلبه لهذه العلوم ورغبته فيها وإحاطته بمباحثها..

● ● ●

— ٢٠ —

الاستعانة بالمعارف والثقافات الحديثة

سبق أن تحدثنا عن أمر ضروري للتعامل مع القرآن، والوقوف على معانيه وحقائقه وعلومه وكنوزه، وهو ملاحظة البعد الواقعي للآيات، كما تحدثنا عن أمر آخر ضروري وهو «توسيع التفسير» وثالث وهو: «تحرير النصوص من قيود الزمان والمكان». . وحتى ينجح القارىء البصير في تحقيق تلك الأمور، وفي استعمال تلك المفاتيح، فلا بدَّ أن يستعين بالعلوم والمعارف والثقافات الحديثة، وأن يلم منها بطرف موجز، وأن يطلع منها على مسائل وقضايا ذات ارتباط بآيات القرآن. . وذلك حتى يوظف هذه العلوم والمعارف في خدمة النص القرآني وتوسيعه وزيادة أبعاده ودلالاته. .

ومعلوم أن «الخلفية الثقافية» للقارىء وسيلة نافعة لتعامله مع القرآن، وأن حصيلته من المعارف والثقافات المعاصرة تعينه على سعة نظرته إلى الآية وتلقيه عنها وحياته بها. . ولا يتعارض هذا مع ما بيناه في قاعدة سابقة من اشتراط دخوله عالم القرآن بدون مقررات سابقة، لأن اشتراط إلقاء المقررات والأفكار على عتبة القرآن حتى لا تحجبه عن تدبره أو تقوده إلى خطأ التعامل معه. . لا يعني أن ينخلع القارىء من معلوماته وأن ينسلخ من ثقافاته، وأن يزيل علومه ومعارفه. . إن هذه كلها تضر إذا جعلها حاكمة على القرآن، فتحجب عنه أنواره، لكنها تنفع إذا جعلها خادمة للقرآن تابعة

له يستعين بها على توسيع معانيه وتكثيرها وزيادتها، عندها ستكون وسيلة نافعة وأداة طيعة.. وهذا ما نقصده منها هنا..

على القارىء أن يلم بعلم «التاريخ» ومراحله وعصوره، وأن يستعين بذلك في تفسير الآيات ذات البعد التاريخي والتوجيهات التاريخية، مثل قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦].

وعليه أن يلم بعلم الفلك، ويستعين به في فهم وتدبر الآيات ذات التوجيهات الفلكية، والتي تلفت الأنظار في السماء وأفلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ ﴾ [الإسراء: ١٢].

وأن يلم بالموضوعات العلمية المختلفة، كالطب وعلم الأجنة ليستعين به في تدبر وتفسير مثل قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ﴾ [الزمر: ٦]، وعلم البحار لقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٢]، وعلم طبقات الأرض

لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧]. وعلم الفضاء لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]، وغير ذلك.

كما أن عليه أن يلم بمسائل علم النفس التحليلي الصائبة، وحالات النفس الإنسانية ومشاعرها وميولها، ليفسر بها تربص المعتدة ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ويدرك سر الأمر بقضاء عدتها في بيت زوجها وإضافة البيت لها وهي المطلقة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] وليفسر بها مراحل سقوط الساقط في مصائد الشيطان واستجابته لزخارفه ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٣].

● ● ●

ـ ٢١ ـ

العودة المتجددة للآيات والزيادة في معانيها

القرآن غني في معانيه ودلالاته، والآيات تنشر على القارىء من معانيها ودلالاتها حسب حالته في التعامل معها، ودرجة استعداده في التلقي عنها. .

وهذا القرآن لا يعطي القارىء إذا كان قاعداً عن العمل به والحركة به والجهاد به، إنه لا يفتح كنوزه إلاَّ لمن يتحرك به، ولا ينشر ظلاله إلاَّ على من يقبل عليه، ولهذا لا بد للقارىء من سلوك الطريق المضمونة الصحيحة لفهمه والتعامل معه، واستخراج كنوزه ومعانيه وحقائقه. .

وما نريد بيانه هنا للقارىء أن عليه ملاحظة أن مكتسباته من القرآن، وثمرات رحلته معه، ونتائج حياته في ظلاله، وحصيلته من علومه وحقائقه وتقريراته، تنمو وتزداد باستمرار، ويضاف إليها الجديد المفيد، والجزيل الجميل. .

وحتى يحقق هذا، لا بدَّ من مراعاة قواعد الإقبال عليه واستخراج كنوزه ومفاتيح التعامل معه، ولا بدَّ أن تكون له عودة للآيات التي عاشها. يستخرج الجديد من معانيها، ويزيد رصيده السابق منها. . وأن يتبعها بعودة أخرى وثالثة ورابعة وهكذا، بمعنى أن تكون عودته للآيات متجددة مكررة، وأن تكون وقفاته أمامها وتأملاته فيها كذلك متجددة متكررة.

على القارىء أن يعيش القرآن، وأن تتجدد مذاقاته وحياته من الحياة به، وأن يكتشف المزيد والجديد من الحقائق المعاشة والمقررات الثابتة.. عليه أن ينظر في رصيده من هذه الحقائق والمعاني والمقررات، وأن يحرص على تنميتها وزيادتها، بدل أن تنقص وتضعف وتذوي وتتلاشى..

إن القارىء في هذا الأمر أمام إحدى حالات ثلاث:

الأولى: أن يكتشف أن رصيده من المعاني والتوجيهات القرآنية قد نقص عن السابق، وأن عودته الثانية للآية لا تقارب أو تداني قراءته الأولى لها، وأن ما يجده الآن منها أقل بكثير مما وجده في أول مرة، وأن ما حصله منه يتناقص ويتناقص، وهو في طريقه إلى الزوال والنفاد.. فإذا كان كذلك فهو محجوب عن القرآن ولا بد أن يسعى إلى الحياة به من جديد.

الثانية: أن يكتشف أن رصيده كما هو لم يتغير بزيادة أو نقصان، وأن المعلومات بقيت عنده كما هي، وأنه عاجز عن أن يضيف إليها الجديد، أو أن يرفدها بالمفيد.. وهذا كذلك محجوب عن القرآن، وما سبق تحصيله منه تجمد وتحجر، وأنه قد أسن وتغير، وأنه محاصر في زنزانة القعود والفتور والضعف والمعصية، ومعنى هذا أن حياة العلم والتدبر والفهم عنده جامدة، وأن حركته به متوقفة، وأن نموه العلمي والإيماني بقي عند حالة واحدة عجز عن تجاوزها.. وعلى هذا القارىء أن يسعى إلى بث الحياة في معلوماته ومكتسباته، وإلى أن يضيف إليها روحاً جديداً ونوراً جديداً ومعاني جديدة.. وذلك عن طريق توثيق صلته بالقرآن وحسن تعامله معه وإقباله عليه وتلقيه عنه..

الثالثة: أن يكتشف أن رصيده قد ازداد، وأن هذه العودة الثانية

أو الرابعة قد أضافت له الجديد المفيد، وأمدته بالجزيل الجميل، وأنه يقف منه على معانٍ جديدة لم يكن قد حصلها سابقاً، وعلى حقائق وتقريرات وظلال لم يكن قد لاحظها أو عاشها.. فهذا هو الموفق في صلته بالقرآن، وهو الحي بالقرآن، وهو المتحرك بالقرآن، وهو رجل القرآن.. إن رصيده القرآني يتضاعف، وإن معلوماته تزداد، وإن صلته به تتوثق، وإن حياته به ومعه تنمو وتتجدد. فليحمد الله على ذلك، وليسأل الله المزيد..

● ● ●

ـ ٢٢ ـ

ملاحظة الشخصية المستقلة للسورة

القرآن الكريم وحدة موضوعية متكاملة، ولو كان من عند غير الله لكان فيه اختلاف كبير، وهو كله متناسق جميل في صياغته في جمله وعباراته وكلماته، كما أنه متناسب مترابط في موضوعاته ومعانيه، فالتناسب والتناسق والوحدة في كل سورة من سوره، وفي كل درس من دروسها، وفي كل مقطع من مقاطعها، وفي كل آية من آياتها، وفي كل كلمة من كلماتها.. إنه بنيان قرآني متماسك متناسق متصل معجز.. إنه أشبه ما يكون ــ من باب التقريب والتوضيح ــ بعمارة رائعة، يلحظ التناسق والانسجام فيها من بعيد، كما يدرك ذلك عندما ينظر في كل دور من أدوارها، وفي كل شقة من شقق ذلك الدور، وفي كل حجرة من حجرات تلك الشقة، وفي كل جدار من جدران الحجرة، وفي كل لبنة من لبنات الجدار.. وهكذا القرآن في عمومه، ثم في كل سورة منه، ثم في كل درس من دروسه، ثم في كل مقطع من مقاطعه، ثم في كل آية من آيات المقطع، ثم في كل كلمة من كلمات الآية..

والقارىء البصير مطالب أن يلتفت إلى الوحدة الموضوعية للقرآن وللسورة منه، وأن يلحظ التناسق والتناسب والارتباط بين الدروس والمقاطع، وأن يتعامل مع السورة على أنها وحدة موضوعية متكاملة

متجانسة، وأن يتعامل معها على أن لها شخصية مستقلة متميزة متفردة، شخصية تربط موضوعها الرئيسي بموضوعات دروسها ومقاطعها، بخيوط دقيقة متينة يلحظها المتدبر البصير..

يقول سيد قطب: «ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص! ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة. تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقي خاص ــ إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة.. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً..» [الظلال ١/ ٢٨].

ويقول في تقديمه لسورة الأعراف «إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة.. إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضع، وتحقيق هذه الغاية..

إن الشأن في سور القرآن ــ من هذه الوجهة ــ كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة.. كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية، وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني.. ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع.. نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح، وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلاّ الخصائص الإنسانية العامة..

هكذا عدت أتصور سور القرآن، وهكذا عدت أحسها، وهكذا عدت أتعامل معها. بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته، وملامحه وسماته!» [الظلال ٣/ ١٢٤٣].

وعلى القارىء أن يسير مع القرآن كما سار سيد قطب، وأن يتعامل مع سوره كما تعامل سيد قطب، وأن يتخذ كل واحدة منها صديقاً وحبيباً ومؤنساً وودوداً كما فعل سيد قطب.. عندها سيقف على الشخصية المستقلة للسورة وسيحسن الربط بين آياتها وموضوعاتها، وسيلحظ الخيوط الدقيقة المتينة فيها، وسيتزود بزاد عظيم من معانيها وحقائقها.

● ● ●

ـ ٢٣ ـ

متابعة الاستعمال القرآني للمصطلح الواحد

إن مصاحبة سور القرآن وآياته وكلماته ومصطلحاته شيقة لطيفة مؤنسة.. إنها تقود القارىء إلى رحلة شيقة لطيفة مؤنسة.. وتطلعه على ألوان وصور ونماذج من المعاني والحقائق والتقريرات والإيحاءات.. وتوقفه أمام كنوز لا تنفد ومذاقات تتجدد..

إن القرآن الكريم دقيق في اختيار مفرداته واستعمال مصطلحاته، وعرض مفاهيمه وحقائقه.. وإنه ينوع صور استعمال المصطلح الواحد، ويبدع في استخدامها، ويضيف معاني جديدة في هذا السياق إلى ما قرره في سياق سابق.. ويلقي في كل مرة ظلالاً خاصة، ويقدم للقارىء في كل مرة مذاقات جديدة لذيذة..

وإذا أراد القارىء أن يسعد ويحيا ويعيش بالقرآن فلا بد أن «يُسلم» نفسه إليه، وأن يستسلم بين يديه، وأن «يمتع» مشاعره وحواسه وقلبه وعقله وكل كيانه في رحلة قرآنية ممتعة، يعود منها بزاد ومدد عظيمين..

إننا ندعوه إلى أن يتتبع استعمال القرآن للمصطلح الواحد، وأن يجمع صور وأساليب وألوان استخدامه له، وأن يلحظ ما أضافه إلى المرات السابقة.. عليه أن يسجل مظاهر الاختلاف في الاستعمال، وأن يقدمها

للناس.. لكنه لا يجوز أن يكتفي بتسجيل هذه المظاهر، وملاحظة هذه الظواهر.. بل لا بد أن يتبعها بخطوة أخرى «يعلل» فيها هذه الظواهر ويفسرها ويتفحصها، ويبين الحكم منها والأسرار التي فيها، والعبر والدلالات التي تؤخذ منها..

وفي هذا الموضوع نقول: لقد لاحظ السابقون كثيراً من الظواهر في أسلوب القرآن، فوقفوا عليها وسجلوها وقدموها للناس فأفادوهم فائدة عظمى، جزاهم الله خيراً.. لكن مما يلاحظ عليهم أنهم غالباً لم يقفوا أمام هذه الظواهر وقفة طويلة متأنية فاحصة متدبرة، ولم يحاولوا أن يعللوها وأن يفسروها، وأن يسجلوا الحِكَم فيها، وأن يبينوا الأسرار التي فيها، وأن يتحدثوا عن نكاتها ولطائفها.. ونحن بدورنا يجب أن نبني على ما ذكروه، وأن نستكمل ما تركوه، وصدق من قال: «كم ترك الأول للآخر؟؟»..

وحتى ننجح في إستخلاص ذلك من المصطلحات القرآنية لا بد أن نتتبعها في أساليب القرآن، ثم نجمعها ونلاحظ الظاهرة التي توحي بها، ثم نعللها ونفسرها ونحاول إدراك الحكمة منها، وذلك بأن نسأل باستمرار «لماذا» لماذا وردت هكذا؟ وما هي الحكمة التي قد تبدو لنا؟ وما هو السر الذي قد نكشف عنه؟ وما هي الدلالة التي تؤخذ منها؟..

فمصطلح «الكفر» على سبيل المثال كثر استعماله في القرآن الكريم في عشرات المواضع، ولكن يلاحظ أنه استعمل عدة اشتقاقات للكلمة: من الفعل والمصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة.. استعمله كفعل ماضٍ مجرد، وماضٍ مسند إلى تاء المتكلم وتاء المخاطب وتاء التأنيث والمخاطبين والمتكلمين والغائبين.. واستعمله في حالة المضارعية. مضارع مسند إلى مفرد متكلم، وإلى مخاطب مفرد، ومخاطبين جماعة. ومسند إلى المتكلمين، وإلى الغائب والغائبين. وفعل أمر للمفرد وللجمع،

واستعمله ماضياً مبنياً للمجهول. وأما استعماله اسماً فورد في الصيغ التالية: كفر ــ كافر ــ كافرة ــ كفرة ــ كفار ــ كافرة ــ كُفور (بالضم) ــ كَفور (بالفتح) ــ كفاراً كفارة ــ كفران.. فما هي الحكمة من كثرة هذه الاستعمالات وتعددها وتنوعها التي كادت أن تشمل كل اشتقاقات الكلمة؟ إن هذا يدرك عند النظر في الآيات مجتمعة، والتعرض إلى دلالاتها متكاملة..

● ● ●

ـ ٢٤ ـ

تجاوز الخلافات بين المفسِّرين والعودة إلى معين القرآن

على القارىء أن لا يكون أسيراً لعصر خاص من عصور المسلمين، ولفهمه لآيات القرآن، ولا أسيراً لفرقة خاصة من فرق المسلمين في فهمها للقرآن، ولا أسيراً لمذهب خاص من مذاهب المسلمين في فهمه للقرآن، ولا أسيراً لمفسر خاص من المفسرين في تفسيره للقرآن.

إن المفسرين السابقين بذلوا جهدهم في تفسير القرآن، ومحاولة بيان مراد الله سبحانه من كلامه، وتفاوتت المعاني التي سجلوها، والإضافات التي قدموها، ونحن نشيد بهم ونترحم عليهم وندعو لهم ونقدرهم ونبجلهم.. لكن هذا شيء، وأن نبقى حتى في أخطائهم في تفسير القرآن ـ وكل المسلمين معرضون للخطأ باستثناء الرسول ﷺ ـ شيء آخر. لا يجوز أن نتابعهم في أخطائهم، ولا في خلافاتهم التى لا ضرورة لها في غالب الأحيان ولا داعي لورودها، ولا ثمرة علمية نافعة منها، لا يجوز أن نتابعهم في نقاشاتهم العديدة، ولا في استدلالاتهم الكثيرة، ولا في استنباطاتهم وترجييحاتهم وردودهم، ولا في مجادلاتهم العقيمة. بل نقدم على تفاسيرهم ونتخير منها ما يصلح لنا ويناسبنا، ونأخذ منها ما يتفق مع النص القرآني، وما يوحى به ويدل عليه، وما فيه من معنى مقبول، وإضافة

نافعة، وثمرة علمية وعملية، وبُعد تربوي توجيهي، وحاجة واقعية حياتية.. وما لم يكن كذلك نطلع عليه اطلاعاً ثقافياً، ولا يكون له عندنا أكثر من المعنى التاريخي التراثي..

لذلك على القارىء أن يتجاوز الخلافات المذهبية بين فرق المسلمين، والخلافات الكلامية بين رجال تلك الفرق، والخلافات البلاغية والنحوية والتاريخية والفقهية أيضاً، وأن يعود إلى معين القرآن الصافي النزيه الثر الكريم.. وأن يغترف منه ويعب ويشرب ولا يرتوي، فمن يرتوي من معين القرآن؟ ومن يشبع من زاد القرآن؟ ومن يمل صحبة القرآن؟ ومن يستبدل بالقرآن وكنوزه وخيراته وأنواره كلام البشر وخلافاتهم ومشكلاتهم ومجادلاتهم؟

كيف نأخذ العقيدة من القرآن؟ الجواب عند القرآن، وليس عند رجال الفرق وعلماء الكلام، من معتزلة وخوارج وشيعة ومرجئة وأشاعرة وحنابلة وغير ذلك.. ماذا يقول القرآن عن رؤية الله في الدنيا، وعن رؤية الكافرين لله يوم القيامة، وعن رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة في الجنة؟ يقبل القارىء عليه متجاوزاً الخلافات العقيمة بين الفرق الإسلامية فيها.. ما هي صفات الله وأسماؤه الواردة في القرآن، نأخذها من القرآن، نأخذها من القرآن ونقول بها كلها، ولا يجوز أن نقصرها على خمس أو سبع أو عشر أو حتى عشرين صفة!! لأن القرآن ذكر أكثر من ذلك، ولا معنى اتصاف الله بها وكيفية ذلك.. يجب تجاوز هذا كله والالتفات إلى «الإيجابية الفاعلة» لصفات الله، التي تدبر وتقدر وتوجه وتحصي وتراقب وتعلم.. والتي يخضع لها كل صغير وكبير في هذا الوجود الكوني والحياة الإنسانية.. ثم ننتقل من هذا للالتفات إلى الآثار والمعاني والدروس والعبر، التي يستفيدها المؤمن من معرفته بصفات الله وإطلاعه على القرآن

وهو يعرضها ويقررها.. ثم نعيش البعد التربوي الإيماني لمعرفتنا بهذه الصفات، وما نستفيده منها في زيادة الإيمان وحيوية الخشية واستمرار المراقبة وتقوية النفوس والسير في الصراط المستقيم.

● ● ●

ـ ٢٥ ـ

معرفة الرجال بالحق

إن ما قررناه في القاعدة السابقة يقود إلى هذا المفتاح والمقياس والميزان، إن قارىء القرآن عليه أن يتمتع «بملكة نقدية» أثناء نظره في التفاسير واطلاعه على أقوال أصحابها.. فلا يقبل على كل ما فيها مهما كان، باسم احترام صاحبه وتوقيره، وباسم علم السابقين وفقههم وإدراكهم، ومَنْ نحن حتى نرفض لهم شيئاً، أو نرد لهم قولاً؟

إننا لا نتحدث هنا عن احترام العالم المفسر وتوقيره، والنظر له بعين الإكبار والإجلال والتقدير، لأننا نعتقد أن هذه بدهية مقررة، تمثل حقيقة دائمة يجب استحضارها دائماً، وعدم مفارقتها أو مخالفتها لحظة واحدة.. وهي سبب أساسي للحصول على رحمة الله ونعمته في التعليم والإدراك والتلقي، ومن فقد هذا السبب وتخلى عن هذا الشرط، فإنه محروم من هذه الفيوضات والفتوحات والمنح والعطايا الربانية.. فلا يجوز بحال أن يطيل القارىء لسانه على أحد العلماء السابقين، أو أن يقع في علمه ودينه، ويتهمه في نيته وعقيدته، ويجهله في علمه وعقله وتفكيره، ويلغي كل نتاجه العلمي نتيجة لخطأ أو أخطاء وقع بها.

حديثنا هنا عن تعامل القارىء مع العالم المفسر ـ الذي يحكمه إجلاله وإكباره وتقديره واحترامه له ـ وهو أن يقرأ في نتاجه قراءة فاحصة،

وأن ينظر فيه نظرة نافذة متوازنة، وأن يملك حاسة نقدية عادلة، وذلك بأن يعرض كلامه على الحق الأصيل المتمثل في الكتاب والسنَّة. وأن يزنه بميزانه ويقيسه بمقياسه، وأن يعرفه من خلاله، ويحكم عليه على هديه، فما وافق ذلك الحق قبله ورضيه وأخذ به ودعا لصاحبه، وما خالف ذلك الحق رفضه وألقاه، مع التقدير والاحترام والدعاء لصاحبه أيضاً، وهذه النظرة تمثل الاتزان الإسلامي، والوسطية الإسلامية، والعدالة في الأخذ والرد والسلب والإيجاب.. لأن أخذ كل ما صدر عن العالم بدون نظر أو تمحيص ظلم وجهل.. ورفض كل ما صدر عنه لخطأ غير مقصود وتجريحه واتهامه وتجهيله، ظلم وجهل كذلك، والقارىء البصير يتجرد عن الأمرين وينزه نفسه عنهما..

كما أنه لا يقبل من قارىء أن يردد قولاً ليس عليه دليل من القرآن أو السنَّة، ويتبناه لأنه قال به أحد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. كأن يقول: هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه، أو قول ابن عمر أو ابن عمرو رضي الله عنهم، أو قول ابن عباس رضي الله عنهما.. فقد تصح نسبة هذا القول إلى الصحابي أولاً، وإذا صحت نسبته له فهل الصحابة معصومون؟ كلا. إنهم قد يخطئون وهم صحابة، وتبقى منزلتهم سامية. إن فهم الصحابة للقرآن تحكمه كذلك نصوص القرآن، فلا نقبل منهم ما تعارض مع القرآن ــ إن وجد ــ ولا نأخذ عنهم في تفصيل ما أجمله القرآن وتبيين ما أبهمه، من أنباء الغيب وقصص السابقين، ما لم يصح عندنا أنه أخذ في هذا عن المعصوم عليه الصلاة والسلام.. فكل أحد يؤخذ من كلامه ويرد إلاَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونحن يجب علينا أن نعرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال، وفهمهم تابع للنص محكوم به، وليس مقيداً له حاكماً عليه..

عندما نطبق هذه القاعدة على نتاج السابقين فكم سنترك من أقوال؟ وكم سنلغي من صفحات؟ وكم سنرفض من تفصيلات وشروحات؟ وكم سنعدم من أساطير وخرافات وموضوعات؟ . .

● ● ●

ـ ٢٦ ـ

ترتيب الخطوات في التعامل مع القرآن

عندما يتعامل القارىء مع القرآن فلا بدَّ أن يرتب خطوات هذا التعامل وأن يحدد المراحل ويبينها، فما هي الخطوة الأولى ثم التي تليها وهكذا؟ وبماذا يبدأ؟ وما هو المقدم وما هو المؤخر؟.. وليحرص على أن تكون الخطوات متناسقة متتابعة متزنة، وأن تكون المراحل متدرجة متكاملة..

الخطوة الأولى: يجب أن تكون في استحضار الجو الإيماني، ومعايشة الحالة الإيمانية التي سيتقدم بها للفهم والتدبر، ويستحضر فيوضات الله وفتوحاته عليه، وذلك بأن يراعي آداب التلاوة التي أشرنا إليها في أول الكتاب.

الخطوة الثانية: هي إقباله على القرآن وتلاوته لآياته، فيبدأ به ويعيش في ظلاله، ويتلقى عنه المعاني والحقائق والتقريرات والموحيات، وينفعل معه بكيانه الإنساني كله.. وسيخرج من ذلك بحصيلة عظيمة وجني وافر وكنز ثمين..

الخطوة الثالثة: الاطلاع على تفسير مختصر لبيان كلمة غريبة أو تحديد سبب نزول أو الوقوف على معنى غامض، أو معرفة حكم خاص.. وهذا الاطلاع ليستعين بفهم العلماء السابقين، فيتضح له ما كان غامضاً، ويبدو له ما كان خافياً، فيصوب نتيجة لذلك فهمه ويصححه،

أو يستدرك على نفسه، ويضيف إلى معلوماته ما غفل عنه.. فهذا الاطلاع للتوضيح أو التصويب أو الاستدراك..

الخطوة الرابعة: الاطلاع على تفسير مطول يتوسع صاحبه في مباحثه ويستطرد في موضوعاته، ويعرض ألواناً مختلفة من المعارف والثقافات.. فيتعامل معه القارىء ـ بملكته النقدية الواعية ـ ليثري معلوماته ويزيد على معارفه وثقافته، ويعيش مع العلم لحظات وفترات مباركة.. وينمي ملكته العلمية وموهبته الاستنباطية..

وننصح في الخطوة الثالثة أن يبدأ ببيان معاني كلمات القرآن، وأجود كتاب في هذا كبداية «كلمات القرآن تفسير وبيان» لحسنين مخلوف. ثم يطلع على تفسير معاصر يتحدث عن القضايا والمسائل والمشكلات المعاصرة ويتخصص في المباحث المعاصرة.. ولن يجد القارىء هذا إلاَّ عند سيد قطب في تفسيره الرائد «في ظلال القرآن» الذي نراه وسيلة واجبة لفهم حي للقرآن، ونعتقد أن من أعرض عنه فيسحرم الكثير من معاني القرآن وحقائقه وتقريراته.. ثم يطلع على تفسير قديم متزن، وتفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير خير من يمثل هذا.

أما في الخطوة الرابعة فننصح أن يقبل على تفسير إمام المفسرين على الاطلاق محمد بن جرير الطبري ـ مع القراءة فيه بحذر شديد والتمتع بالملكة النقدية ـ ثم يقرأ ما طاب له من التفاسير الأخرى كتفاسير الرازي والنيسابوري والزمخشري والقرطبي وأبي السعود والآلوسي والشوكاني ورشيد رضا في المنار..

إذا خلط القارىء بين المراحل وشوّش في ترتيب الخطوات فسيقع في خلط وتشويش وسيحرم الكثير من العطاء القرآني الكريم.

ورحم الله الإمام الشهيد حسن البنا عندما أجاب على سؤال وجه إليه عن أقرب الطرق لفهم كتاب الله، فقال: «قلبك، فقلب المؤمن ولا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى.. وأقرب طرائق الفهم: أن يقرأ القارىء بتدبر وخشوع، وأن يستلهم الرشد والسداد، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة.. وأن يلم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة، ويعنى بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة، فسيجد في ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم.

وإذا قرأ في كتب التفسير بعد ذلك فللوقوف على معنى لفظ دق عليه، أو تركيب خفي أمامه معناه، أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله. فهي مساعدات للفهم.. والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوؤه في صميم القلب» [مقدمات تفسير القرآن: ٣٠].

• • •

ـ ٢٧ ـ

جني الثمار العملية للتعامل مع القرآن

لا بدَّ من الحضور الفاعل الحي المؤثر أثناء تلاوة القرآن وتدبره والتعامل معه بكافة مشاعره وأحاسيسه وانفعالاته، واستخدام كل أجهزة كيانه الإنساني.. فلا يكون هدف القارىء من نظراته في القرآن مجرد الأجر والثواب فهذا وارد وسيحصل عليه بإذن الله.. كما لا يكون هدفه «تثقيف» نفسه بثقافة قرآنية شاملة، وحشو ذهنه المجرد وعقله النظري بألوان شيقة من المعرفة والثقافة، وزيادة رصيده من الثقافات والعلوم والمعارف.. وإن الوقوف عند الثقافة وحدها لا يولد عملاً ولا التزاماً ولا سلوكاً سليماً.. كل ما في الأمر أنه يملأ عقله بهذه المعلومات، فتتحول إلى قضايا ومعلومات وثقافات نظرية، وتوضع هناك في «خانة» المنطق الذهني النظري المجرد، وتتجمد فيه إلى أن تضعف فتزول وتتلاشى، أو تبقى مجمدة عاجزة عن الوصول إلى منافذ التوجيه والقيادة والتربية.. فترى هذا الإنسان يردد ما في عقله من معلومات، وما في ذهنه من ثقافات، ويتحدث عنها ـ بلباقة وفصاحة ـ ولكن أين هو في شخصيته واستقامته مما يقول؟ وأين هو في مسلكياته وحياته مما يبشر به؟ وأين هو في ارتباطه وصلته بمن حوله مما يتحدث عنه؟

على القارىء أن يتلقى إيحاءات القرآن بمشاعره وأحاسيسه

وانفعالاته، أن يتلقاه معلومات وثقافات، وأن يتلقاه أفكاراً وتصورات، وأن يتلقاه حقائق وبدهيات، وقيماً حية، وتوجيهات حياتية، ومبادىء معاشة، وأوامر عملية ميدانية، ودليلاً عملياً لحياته في يومه ونهاره.. عليه أن يتلقاه بعقله وذهنه وخياله، وأن يتلقاه بفكره ووعيه وإدراكه، وأن يتلقاه بقلبه وروحه ووجدانه وضميره، وأن يتلقاه بشعوره وإحساسه وهمته وطاقته، وأن يصل بين كل الأجهزة في كيانه، وأن ينسق بين ما تلقاه كل منها، وأن يجمع هذه الحصيلة مجتمعة، وأن يربط بينها بخيوط متينة دقيقة، وأن يحولها إلى برنامج يومي، وسلوك عملي، وحقائق معاشة، وإيمان قرآني حي فاعل مؤثر.. وأن يقتدي في ذلك برسول الله ﷺ ــ كما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها ــ كان خلقه القرآن، وأن يقتدي بأصحابه الكرام رضوان الله عليهم الذين كانوا يتلقون القرآن «تلقياً للتنفيذ» لينفذوه فور سماعه، وينظرون له نظرة الجندي في الميدان إلى «الأمر اليومي» الصادر إليه، ليعمل به فور تلقيه. (كما يقول سيد قطب في معالم في الطريق: ١٧ ــ ٢٠).

لذلك على القارىء أن يتمتع أثناء النظر في القرآن بحضور كامل فاعل، وأن لا يشغله عن القرآن ــ وهو يتلوه ــ شاغل، أو يصرفه عنه صارف، أو يحول بينه وبين إيحاءاته وأنواره حجاب أو مانع، وأن يجمع على فهمه نفسه وهمته وفكره، ووجدانه وخياله وشعوره، وقلبه وعقله ووعيه..

على القارىء أن لا يخلط بين الوسائل والغايات، وأن لا يجعل من الوسائل غايات، فكم سيخسر لو فعل ذلك! إن كل ما يستخدمه أثناء التلاوة لا يعدو أن يكون وسائل توصله إلى غاية واحدة محددة.. التلاوة، والتدبر، والنظر، وما يحصل عليه من حقائق ولطائف ومعلومات وتقريرات، وما ينقدح في قلبه من أفهام ومبادىء وآراء، والاطلاع على

التفاسير، والحياة مع القرآن لحظات أو ساعات، هذه كلها لا يجوز أن تكون إلاَّ وسائل لغاية، ولا يمكن أن تكون بحد ذاتها غايات.. لأنه إن وقف عندها واكتفى بتحقيقها وتحصيلها، فلن يحيا بالقرآن ولن يعيش مع القرآن ولن يدرك كيفية التعامل مع القرآن!..

ونحن نعلم أن من المسلمين من يكتفي بها، ويقعد عندها، ويجعلها هي الهدف المرجو والغاية المطلوبة، لكن هؤلاء لم يفهموا القرآن، ولم يعيشوا به!!.

المؤمن عندما يصاحب القرآن في رحلة شيقة ممتعة لا بد أن ينظر في ما حصله فيها، ولا بد أن يقوِّم هذه الرحلة، ويعرف كم ربح فيها، وكم استفاد منها، وكم جنى من ثمار مباركة دانية..إن الثمار التي يرجوها لن تكون إلاَّ في تحقيق الغاية التي حددها وطلبها.. وهو عندما يكون قارئاً سيسأل القرآن عن غايته، وعن غاية المؤمن من تلاوته، وسيجد في القرآن الجواب الواضح البين، وقد سبق أن تحدثنا عن غاية القرآن في الحياة عند حديثنا عن «الالتفات إلى الأهداف الأساسية للقرآن» و «ملاحظة المهمة العملية الحركية للقرآن» وغيرهما من مفاتيح التعامل مع القرآن..

يحدد القرآن للمؤمن المتدبر الغاية من قراءته فيه وتعامله معه وتدبره له.. قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٢ ــ ٢٣]..

إن الغاية المحددة هنا هي «الهدى».. ذلك هدى الله يهدي به من

يشاء.. باعتبارها وردت خاتمة للآيتين اللتين تحددان كيفية تلاوة القرآن، وتصفان أحوال الذين يقومون بهما، وتسجل مظاهر التأثر والتغير والانفعال عليهم.. ثم تبين الثمرة لهذه التلاوة، وتحدد الغاية منها، وتدعو المؤمن إلى أن يلحظها، ويسعى إلى تحقيقها، ويتشوق إلى تلك الثمرة، ويحرص على أن يجنيها .. إنها «الهدى»، الهدي القرآني.. هدى الله يهدي به من يشاء.. هدى مطلق شامل عام للفرد والمجتمع والأمة..

وهناك آية أخرى تقرر غاية أخرى للتلاوة وهي قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الحياة الحرة العزيزة الكريمة التي تليق بالمؤمن، الحياة السعيدة المباركة الهادية التي تبارك عمره وترفعه وتزكيه.. الحياة التي لا بدَّ أن يجعلها غاية له من تلاوته، وثمرة له يجنيها من رحلته فيه، ونتيجة عملية يحققها من تعامله معه..

هذه غاية التلاوة، وثمرة التعامل، ونتيجة التدبر، وكل ما سواها وسائل لتحقيقها.. القرآن هدى فكيف نهتدي بالقرآن؟ القرآن نور فكيف نستضيء بالقرآن؟ القرآن حياة فكيف نحيا بالقرآن؟ القرآن كنز فكيف نستفيد منه ؟ القرآن صديق حبيب ودود فكيف نتعامل معه؟ القرآن شجرة باسقة مثمرة معطاءة خيرة فكيف نعيش في ظلالها؟ ونستروح أفياءها ونجني ثمارها التي لا حياة بدونها؟ هذه هي الغاية من التلاوة وهذه هي الثمرة من التدبر.. غاية تدعو السائرين إليها، وثمرة تحفز هممهم إليها، وتوجه أشواقهم إليها.. ونرجو أن نكون من هؤلاء السعداء الموفقين، الذين يعيشون في ظلال القرآن، ويحيون في أفياء القرآن، ويجنون من ثمار القرآن، ويحققون غاية القرآن، ويحسنون التعامل مع القرآن، ويستخدمون المفاتيح الهادية لفتح كنوز الفرآن.. والذين يقودهم القرآن في الدنيا،

ويكون حجة لهم يوم القيامة، وشفيعاً لهم يأخذ بأيديهم لدخول جنة الله بفضله وعفوه ورحمته.. والله الهادي إلى سواء السبيل.. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

● ● ●

المـراجـع

١ ــ الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي
المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.

٢ ــ إحياء علوم الدين، للغزالي
دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م.

٣ ــ التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي
نشر دار المعرفة ومكتبة الغزالي، بدون تاريخ.

٤ ــ جامع الأصول من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، لابن الأثير
تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، نشر دار البيان بدمشق ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م.

٥ ــ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي
دار القلم بمصر، الطبعة الثالثة، ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م.

٦ ــ الزهد، لابن المبارك
تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

٧ ــ فضائل القرآن، لابن كثير ــ ملحق بالجزء الرابع من تفسيره
تحقيق وتعليق محمد رشيد رضا، طبعة المكتبة التجارية بمصر.

٨ ــ في ظلال القرآن، لسيد قطب
دار الشروق، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.

٩ ــ معالم في الطريق، لسيد قطب
دار دمشق، بدون تاريخ.

١٠ ــ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني
تحقيق محمد سيد كيلاني، طبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٩٦١م.

١١ ــ مقدمات نتفسير القرآن، لحسن البنا
مكتبة حطين، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢م.

١٢ ــ النبأ العظيم، للدكتور محمد عبد الله دراز
المكتبة التجارية بمصر.

• • •

المحتوى

• • •